٢٠٢٥

مقالات مترجمة حول الدين والعنف والتشدد

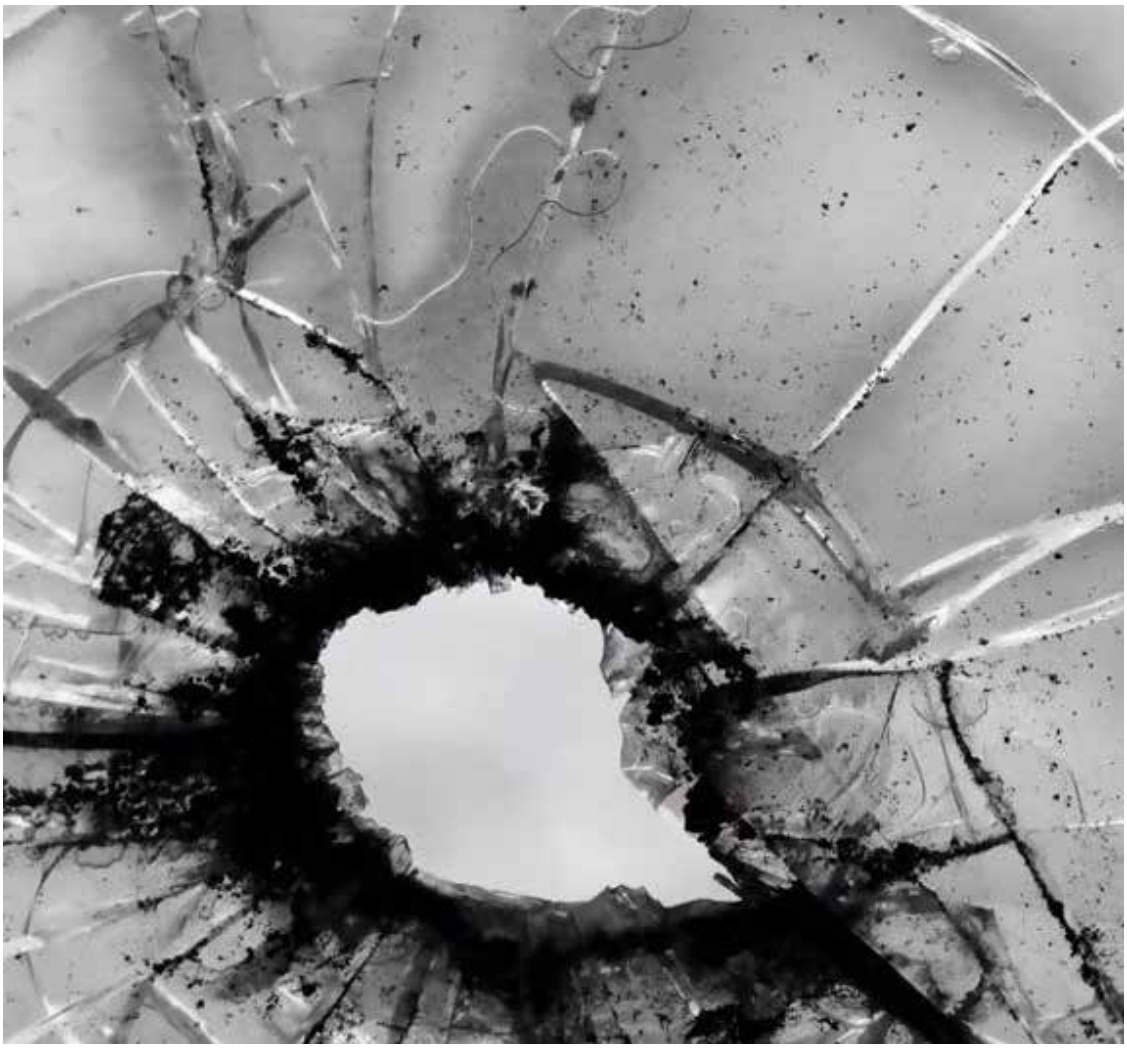

محمد الدخاخني
كاتب ومترجم
مصري

علي نوار
كاتب ومترجم
مصري

مدني قصري
كاتب ومترجم
جزائري

هل كان هتلر متديناً؟

محمد الدخاخني
كاتب ومترجم
مصري

في البدء، بدا أنّ أدولف هتلر يستسيغ المسيحيّة.

وكما كتب فريتز ريدليتش في السّيرة الذّاتيّة الصّادرة عن «الفوهرر» عام ١٩٩٩: «في طفولته، كان هتلر مفتوناً بأُبّهة وطقوس الكنيسة الكاثوليكيّة، بل إنّه، حسبما يُزعَم، فكّر لفترة من الوقت في أن يُصبح كاهناً».

لكن هتلر، المولود قبل ١٣٠ عاماً، في ٢٠ نيسان (أبريل) ١٨٨٩، بدأ يرفض الدّين خلال سن مراهقته وجُرّ في اتّجاهات مختلفة على يد والديه.

والدته، كلارا، الشخص الوحيد، كما يذكر البعض، الذي أحبّه هتلر على الإطلاق، كانت كاثوليكية متدينة. ووالده، ألويس، الذي كثيراً ما تقاتل معه هتلر، كان يعتقد أنّ الدين في جوهره عبارة عن عملية احتيال، عكّاز للضّعف البشري، على حد تعبير مؤرخ آخر.

اتّبع هتلر التصور الدّيني الذي اعتنقه والده ولكن في أكثر صوره شرّاً، لقد كره اليهوديّة، وقتل بفرح ٦ ملايين يهودي، لكنه بغض المسيحية أيضاً.

وكما أشار آلان بولوك في كتابه ذي التّأثير الواسع، «هتلر: دراسة في الطّغيان»، والذي يتناول فيه السيرة الذاتية للزعيم النازي: «في نظر هتلر، كانت المسيحيّة ديناً لا يناسب سوى العبيد. فتعاليمها، كما أعلن، كانت تمرداً على القانون الطبيعي للانتقاء المستند إلى بقاء الأكثر مُلاءمة».

أدولف هتلر في عام ١٩٣١ (أ ف ب)

وقد بدأ شكّ الفوهرر وسلوكه المراوغ تجاه الدّين المنظَّم ببراءة كافية، في فصول الكتاب المقدّس الأسبوعية.

«كان هتلر مفتوناً بأبهة وطقوس الكنيسة الكاثوليكيّة ويُزعَم أنه فكّر لفترة من الوقت في أن يُصبح كاهناً»

وكما أشار ريدليتش في كتابه «هتلر: تشخيص لنبي مدمِر»، فإنّ التلميذ الصغير «خلال فترة التعليم المتوسط، جعل حياة معلم الدين الخاص به، الأب سالو شوارتز، بائسة» من خلال تمسكه «بوجهة نظر والده التي تفيد بأنّ الدين جاء من أجل الغبيات والعجائز من النساء».

وصفه لتلك الأيام في النمسا، اعتمد ريدليتش على ترجمات لنصوص من المونولوغات الليلية التي سلمها هتلر إلى أقرب مساعديه ومتلقي أفكاره في أوائل الأربعينيات.

كلارا هتلر وابنها أدولف هتلر

«اتّبع هتلر التّصوّر الدّيني الذي اعتنقه والده ولكن في أكثر صوره شرّاً فقد كره اليهوديّة والمسيحية أيضا»

وقد تفاخر هتلر بكسبه «أفضل العلامات» وبأنه كان «الأقل خلواً من العيوب في مادة السلوك». يقول هتلر: «كان لدي إعجاب خاص بالمواضيع الحساسة في الكتاب المقدس، وتملكتني سعادة شريرة لطرح أسئلة مثيرة للحرج».

أشار هتلر إلى أحد جوانب الرهبة الدينية، الهندسة المعماريّة للكاتدرائية المحلية. يقول: «كنت ممتلئاً بالاحترام لجلال المكان». لكنه كان ممتلئاً بالازدراء لكل ما هو تقي وإلهي».

وبالرغم من إعجاب هتلر بالبنية الهرمية للكنيسة الكاثوليكيّة واستلهامه لها، فإنه نشأ وفي نفسه، كما كتب ريدليتش، «غضب عاجز» تجاه تعاليمها اللوحيّة بسبب «القوّة الهائلة للكنيسة، التي لم يكن باستطاعته استبدالها بما أسماه العلم والعقل».

ويقتبس بولوك، في سياق وصفه لهتلر بأنّه «عقلاني ومادي»، محادثة للزعيم النازي خلال زمن الحرب مع مساعديه، جاء فيها:

«تهترئ العقيدة المسيحية أمام الاكتشافات العلمية، تنهار الأساطير تدريجياً، وكل ما تبقى لإثبات طبيعة أنه لا توجد حدود بين العضوي وغير العضوي. وعندما ينتشر فهم الكون على نطاق واسع، وعندما تعرف غالبية البشر أنّ النجوم ليست مصادر للضوء، ولكنها عوالم، ربما عوالم مأهولة مثل عالمنا، فعندها ستتم إدانة العقيدة المسيحية بالسخافة».

بحلول عام ١٩٤٢، تعهد هتلر، وفقاً لبولوك، بـ«القضاء على نفوذ الكنائس المسيحية وتدميرها»، واصفاً إياها بـ«الشر الذي يعكر صفو حيويتنا».

ويقول هتلر: «لا يمكنني في الوقت الحالي إعطاءهم الإجابة التي يطلبونها، ولكن سيأتي وقت أقوم فيه بتسوية حسابي معهم، سيسمعون مني كل الحق»، ولكن كان عليه، أولاً، الانتهاء من اليهود.

المصدر: مايكل س. روزنفالد، الواشنطن بوست

لماذا تكون كتب التاريخ متحيّزة؟

محمد الدخاخني
كاتب ومترجم
مصري

«التّاريخ سيكون لطيفاً معي، لأنّني أنوي كتابته»، يتبادر إلى الذّهن مؤخّراً هذا الاقتباس المشهور المنسوب إلى رئيس الوزراء البريطانيّ السّابق، ونستون تشرشل، الّذي ألَّف بالفعل العديد من الكتب، بما في ذلك ستّة عن الحرب العالميّة الثّانية، التي كان أحد قادتها المنتصرين. ظهرت مؤخّراً سلسلة من الكتب حول الماضي القريب لماليزيا، ويبدو أنّ السّباق يدور حول الكيفيّة الّتي ينبغي بها النّظر إلى سقوط حكومة «باريسان ناسيونال»، في ٢٠١٨، وهو الحزب الذي لم يكن قد خسر من قبل أيّة انتخابات، منذ الاستقلال عام ١٩٥٧، وما أعقب ذلك من آثار.

كتاب «كشف حساب أخير» (Final Reckoning)، لرومن بوز، يعبّر عن وجهة نظر ممتازة من الدّاخل حول كيف ضُلّل آخر رئيس وزراء لـ «باريسان»، نجيب عبد الرّزّاق، من قِبل رجاله المُهادنين، ويقدّم الكتاب صورة متعاطفة للشّخص النّبيل الذي يندم العديد من الماليزيّين على طرده من منصبه في الانتخابات العامّة الأخيرة. كتاب «التقاط الأمل» (Capturing Hope)، الذي خطّه الرّجل الذي خلف نجيب، مهاتير محمّد، يكون في بعض الأحيان لاذعاً، لكنّه غالباً ما يكون مراوغاً: لن يُقنع الإصلاحيّين الذين تحالفوا معه وانتهى بهم الأمر إلى الشعور بخيبة أمل من توجّه حكومته بمجرد وصوله إلى السّلطة.

سرديات تستمر

لماذا هذا مهمّ؟ يمكن أن تحدّد كتب التّاريخ سرديّات تستمرّ لأعوام وعقود وحتّى قرون. كتاب «مذنبون: تراجع وسقوط المحافظين ١٩٩٢-١٩٩٧»، الذي يدور حول المملكة المتّحدة ويعود إلى تسعينيّات القرن الماضي، والّذي كتبه مستشار مجلس الوزراء السّابق، هيويل ويليامز، وُصِف بحقّ بأنّه «النّصّ الكلاسيكيّ للانهيار الدّاخليّ لحزب المحافظين خلال التّسعينيّات»، قد تظلّ ذكريات «الفساد» المرتبط بحكومة جون ميجور قويّة، لكن بلا رحمة. وبشكل مقنع انتقد ويليامز تقريباً كلّ عضو في تلك الإدارة، وقد سألتُه في ذلك الوقت عمّا إذا كان قد وجد الأمر محرجاً عند اختلاطه بالدّوائر السّياسيّة.

عنوان مذكّرات لي كوان يو، المكوّنة من مجلّدين، يكشف الأمر برمّته؛ شرع كوان يو في كتابة «قصّة سنغافورة» (Singapore Story) حتّى تسمع روايته للأحداث بأعلى صوت، ومن المؤكّد أنّ هيمنة شخصيّة رئيس الوزراء السّابق في تاريخ هذه الدّولة المدينة، والتّقليل من الأدوار الّتي لعبها كلّ من أصبح منتقِداً، قد عزّزتها كتبه المقنعة جدّاً.

نهاية التّاريخ

في بعض الأحيان، يمكن أن يأخذ الكتاب أو عنوانه حياةً خاصّةً به ويبدو مؤثّراً في المستقبل، وليس مجرّد تسجيل للماضي. عندما نشر العالم السّياسيّ الأمريكيّ فرانسيس فوكوياما كتابه «نهاية التّاريخ والإنسان الأخير» (The End of History and the Last Man)، عام ١٩٩٢، لم يكن يقصد أنّ الوقت قد توقّف بطريقة ما، لكن استنتاجه بأنّ العالم قد وصل إلى «نقطة نهاية التّطوّر الأيديولوجيّ للبشريّة وتعميم الدّيمقراطيّة الليبراليّة الغربيّة باعتبارها الشّكل النّهائيّ للحكومة البشريّة»، أقنع كثيرين بأنّ هذه حقيقة بديهيّة لدرجة أنّها لا تحتاج إلى مزيد من المناقشة. تجاهل صانعو السّياسة الغربيّون المؤثّرون، تحت تأثير هذا الوهم، الآبار العميقة للثّقافات المحلّيّة ومكامن جذب الطّائفيّة والإيمان والقوميّة نتيجة لذلك، مع عواقب وخيمة في كثير من الأحيان.

««التّاريخ سيكون لطيفاً معي، لأنّني أنوي كتابته» هذا الاقتباس منسوب لونستون تشرشل، الّذي ألَّف العديد من الكتب، منها ستة عن الحرب العالميّة الثّانية، التي كان أحد قادتها المنتصرين»

وليس بالأمر الجديد أن تكون هناك سرديّة تاريخيّة خاطئة، لكن محلّ اعتقاد على نطاق واسع، ولم تتحسّن سمعة ملك إنجلترا ريتشارد الثّالث قطّ من توصيفه كشرير في المسرحيّة التّاريخيّة التي كتبها ويليام شكسبير، والتي تحمل اسم «الملك». الشّيء نفسه ينطبق على ماكبث، ملك أسكتلندا في القرن الحادي عشر. فبدلاً من كونه قاتلًا مستبدّاً وغاصباً، كما قال شكسبير، فإنّه وفق هيئة الإذاعة البريطانيّة «بي بي سي»، «لمدّة ١٤ عاماً، يبدو أنّ ماكبث قد حكم بشكل عادل، فارضاً القانون والنّظام، ومشجّعاً المسيحيّة»، لكن لسوء حظّه، قليلون يسمعون رواية أكثر عدلاً عن فترة حكمه.

صلاح الدين وقلب الأسد لم يلتقيا

في بعض الأحيان، لا يمكن إلّا لتاريخ جديد موثوق أن يبدأ في التّخلّص من المفاهيم الخاطئة القديمة. من بين الاكتشافات المذهلة في سيرة صلاح الدّين، التي كتبها عبد الرّحمن عزام عام ٢٠٠٩؛ أنّ العديد من القصص الّتي نعتزّ بها عن صلاح الدّين ملفّقة تماماً. على سبيل المثال، لم يستخدم هذا الجنرال الكرديّ العظيم في القرن الثّاني عشر سيفه قطّ لقطع وشاحٍ من حرير بدقّة إلى جزأين بعد أن كسر الملك الإنجليزيّ ريتشارد قلب الأسد قضيباً حديديّاً بسيفه الطّويل، لأسباب ليس أقلّها أنّ الاثنين لم يلتقيا قطّ، والأهم من ذلك الحجّة المثيرة للاهتمام القائلة إنّ دور صلاح الدّين المحوريّ في إحياء السّنّة في مصر ربما كان أكثر أهميّة من هزيمته للصّليبيّين واستعادة القدس.

سيرة عزّام، على الأقل وفقاً لناشري كتابه، هي الأولى عن صلاح الدّين لمؤرّخ مسلم، لمؤرّخ تمكّن تماماً من الاعتماد على جميع المصادر العربيّة ونقْل محتواها إلى الإنجليزيّة. يجب أن يكون هذا مفاجئاً، لكن بعد قليل من الدّراسة، لا يبدو، للأسف، كذلك. يرجع ذلك إلى أنّ المؤلّفين الناطقين بالإنجليزية في أمريكا الشماليّة وأوروبا لم يشعروا قطّ بالرّهبة عند كتابة مجلّدات جزميّة حول أجزاء من العالم قد يكون لديهم اتّصال محدود بها.

لا يعني هذا أنّ كثيرين لم ينتجوا أعمالاً علميّة عظيمة، لكنّ وجهات نظرهم تكاد تكون مختلفة بعض الشيء، وأحياناً تكون مختلفة إلى حدّ كبير، في المدرسة الإعداديّة في إنجلترا، في أوائل الثّمانينيّات من القرن الماضي، كانت غزوات الإمبراطوريّة البريطانيّة تُقدّم لي دائماً على أنّها إنجاز مجيد، على سبيل المثال.

«لم يستخدم صلاح الدين الأيوبي سيفه لقطع وشاحٍ من حرير بدقّة إلى جزأين بعد أن كسر الملك ريتشارد قلب الأسد قضيباً حديديّاً بسيفه الطّويل، لأنّ الاثنين لم يلتقيا قطّ»

قد يكون التّفسير مختلفاً الآن، لكنّ الافتقار إلى التّوازن ما يزال لافتاً للنّظر. سيكون من الرّائع، على النّقيض من ذلك، قراءة الكتب المنشورة على نطاق واسع عن المملكة المتّحدة أو أوروبا من قِبل السّلطات في إندونيسيا أو نيجيريا أو الشّرق الأوسط، على سبيل المثال، ومع ذلك، إنْ وُجدت، فأنا لا أعرف عنها.

لحسن الحظّ، مجموعة الكتب الخاصّة بماليزيا، التي أشرت إليها في البداية، كتبها محلّيّون، باستثناء بوز، وإن كان سنغافوريّاً نشأ وهو يفكّر في شبه الجزيرة إلى الشّمال على أنّها منطقته النّائية، كما أنّ معرفته بالبلد عميقة.

وهذه ليست سوى أحدث روايات تاريخ حديث، وهي، وتواريخ البلدان الأخرى، ستخضع للتّدقيق وإعادة الفحص مجدّداً في المستقبل، طالما أنّ هناك كتّاباً يتشبّثون بكلمات الرّوائيّ الأمريكيّ الرّاحل ويليام فولكنر: «الماضي لم يمت قطّ، بل إنّه ليس ماضياً»، فقط اسأل نفسك من هم المؤرّخون؟ وما الفؤوس التي عليهم أن يطحنوها أثناء كتابتهم؟

المصدر: شولتو بيرنز، ذي ناشونال، كانون الثاني (يناير) ٢٠٢٢

ماذا تعرف عن التوسّع السياسي للكنيسة في أمريكا اللاتينية؟

علي نوار
كاتب ومترجم
مصري

لم تكن الحدود الفاصلة بين الدين والسياسة،.. واضحة أبداً، وما تزال كذلك حتى اليوم؛ فعلى مرّ التاريخ، ظلّ الصراع بين السلطتين؛ السياسية والدينية، دائراً، بل ودخل أكثر من مرة في فترات من التوتّر الشديد والعنف أحياناً، وفي أوروبا وأمريكا اللاتينية، خلال القرن الـ ٢٠، ظهرت بشكل مستمر أحزاب ديمقراطية مسيحية، وصلت في مناسبات عديدة لسدّة الحكم، مثلما حدث في تشيلي وفنزويلا وكوستاريكا وجواتيمالا، وفي عصرنا هذا، يتستّر نوع من الإرهاب الأصولي بغطاء إسلامي، في حين تسعى حركات أصولية دينية بعينها لزيادة وجودها في المناطق الأكثر تنوعاً من العالم، وفي الوقت نفسه؛ تشهد أمريكا اللاتينية صعوداً لحركات سياسية ذات خلفية إنجيلية تكسب، يوماً بعد يوم، أرضاً في المشهد السياسي بدولها، ما جعلها تتحوّل إلى ظاهرة ذات بعد إقليمي.

ويمكن اليوم، عملياً، العثور على كنيسة إنجيلية، أو دار عبادة، لهذه الطائفة في كلّ أرجاء القارة، حتى الأكثر فقراً وتهميشاً منها، وقد أسهمت الرابطة المستمرة والوثيقة؛ بين الكنائس الخمسينية، والخمسينية الجديدة، والطبقات

للكنائس الإنجيلية دور بارز على الساحة السياسية

الشعبية، والفئات الأفقر في المجتمع، لهذه الكنائس بالبروز على الساحة السياسية بصورة لافتة للنظر، أكثر مما قد يفعله أيّ حزب أو حركة أخرى، وإذا أضفنا إلى ذلك توجّهها العقائدي الخاص، فيمكننا أن نخلص، مثلما فعل أستاذ العلوم السياسية، خابيير كورواليس، إلى أنّ الكنائس الإنجيلية «تمنح القضايا المحافظة في أمريكا اللاتينية- والأحزاب السياسية على وجه التحديد- دفعة جديدة وكتلة تصويتية جديدة أيضاً».

ويذهب هذا الخبير لأبعد من ذلك، بقوله: إنّ «صعود المجموعات الإنجيلية أمر يدعو للقلق من المنظور السياسي؛ لأنّها تغذّي نوعاً من الشعبوية، وتمنح الأحزاب المحافظة مصوّتين لا ينتمون للنخبة، وهذا أمر يصبّ في صالح الديمقراطية، لكنّ هؤلاء الناخبين يتبنّون مواقف متصلّبة تجاه الملفات المتعلّقة بالجنس، ما يفضي إلى حالة من الاستقطاب الثقافي، وقد أعيد إحياء نموذج الإدماج غير المتسامح، الذي لطالما كان يمثّل النسخة الكلاسيكية من الشعبوية في أمريكا اللاتينية، على أيدي القساوسة الإنجيليين».

الظهور الإنجيلي في أمريكا اللاتينية

من جانبها، تؤكّد مارتا لاجوس، مديرة مؤسسة «لاتينوبارومترو» غير الحكومية، ظاهرة الصعود الإنجيلي، موضّحة «هناك تزايد مطّرد في نفوذ الكنيسة

الإنجيلية، خاصّة بين الشرائح الأفقر، المرشحون يسعون إلى جمع أصوات الناخبين الإنجيليين»، بالتالي؛ فإنّ أمريكا اللاتينية تشهد ظاهرة جديدة تماماً؛ هي صعود الكنائس الإنجيلية، خاصة الخمسينية والخمسينية الجديدة منها.

ونجحت هذه الكنائس في تعزيز حضورها السياسي في عدّة بلدان، فضلاً عن تقوية تمثيلها المؤسسي، سواء عن طريق المناصب الحكومية، أو في البرلمانات، بداية من مجالس النواب الوطنية والإقليمية، لكن من المهم هنا التفريق بين الكنائس الإنجيلية التاريخية القديمة، مثل الميثودية، وتلك الأحدث مثل الخمسينية والخمسينية الجديدة، لا سيما تلك المرتبطة بـ «الحركة الجاذبة»، نظراً إلى النهج السياسي المختلف الذي تتبعه الأولى.

«البرازيل نواة التوسّع للكنائس الإنجيلية في أمريكا الجنوبية وينعكس ذلك في وجود قساوسة برازيليين في كلّ عواصم دول أمريكا اللاتينية»

وينبغي البحث عن جذور هذا التوسّع في الحملات التبشيرية التي نفذتها كنائس إنجيلية بعينها من الولايات المتحدة؛ اعتباراً من أواسط القرن الماضي، التي أدّت إلى دخولها إلى أمريكا الوسطى بشكل أساسي، أمّا نواة التوسّع للكنائس الإنجيلية في أمريكا الجنوبية؛ فقد كانت البرازيل، وهو ما ينعكس اليوم في وجود قساوسة برازيليين في كلّ عواصم دول أمريكا اللاتينية، أو الكثير من مدنها الكبرى.

لكن، كما ذُكر سابقاً؛ فإنّ التداخل بين الدين والسياسة ليس ظاهرة مستحدثة، والتمازج بين الحركة الإنجيلية والسياسة ليس كذلك أيضاً، فقد تمكّن ألبرتو فوخيموري من الحصول على دعم عدة كنائس إنجيلية، بينما كان ما يزال غير معروف بين قطاعات واسعة من البيروانيين، ليخوض الانتخابات الرئاسية، ورافق القسّ كارلوس جارسيا، زعيم الكنيسة المعمدانية، فوخيموري، كنائب

رئيس، كمرشحين عن حزب (كامبيو ٩٠)، أو (تغيير ٩٠)، الذي فاز في انتخابات ١٩٩٠، واختير جارسيا نائباً ثانياً للرئيس.

وكان دعم الكنيسة المعمدانية، وكنائس أخرى إنجيلية، في بيرو، أساسياً لضمان فوز فوخيموري؛ فقد عملت هذه الكنائس على جمع التوقيعات اللازمة كي يمكن تسجيل (تغيير ٩٠) كحزب سياسي؛ حيث تتسنّى له المشاركة في الانتخابات، علاوة على المساهمة في تشكيل لجان محلية بجميع أنحاء البلاد كوسيلة من وسائل ضمان توفير أكبر قدر من الدعم الشعبي، ليس ذلك فحسب؛ بل ترشّح ٥٠ من أتباع الكنيسة الإنجيلية لانتخابات البرلمان عن حزب (تغيير ٩٠)، انتخب ١٤ منهم في مجلس النواب، ودخل أربعة آخرون مجلس الشيوخ، إلّا أنّ الشعور بالإحباط تجاه الرئيس الجديد تنامى سريعاً، سيما أنّه لم يحقق فقط مستويات التنمية التي كان قد تعهّد بها؛ بل لأنّه منح الكنائس الموالية له الامتيازات نفسها التي كانت تتمتع بها الكنيسة الكاثوليكية.

«تحظى التيارات الإنجيلية بعامل لا تتمتع به الأحزاب التقليدية وهو القرب من الطبقات الشعبية التي اعتادت منح أصواتها لأحزاب اليسار»

هناك نموذج آخر، أكثر حداثة، يعطينا فكرة عن الصعود غير المسبوق للتأثير الإنجيلي في الحياة السياسية في دول أمريكا اللاتينية، والمؤشرات الإيجابية التي يمكن التقاطها دوماً من السياسيين، سواء المحسوبين على تياري اليسار أو اليمين؛ ففي ٢٠١٤، وقبل شهرين فقط من إحدى الاستحقاقات الانتخابية، الأكثر سخونة في البرازيل على مرّ تاريخها، اتّفق عدد كبير من الساسة على الاجتماع في وسط مدينة ساو باولو، لحضور افتتاح كنيسة «سالومون» الضخمة، التي تقع على مساحة ١٠٠ ألف مترمربع، وتتسع لـ ١٠ آلاف مصلٍّ.

الأسقف إيدير ماسيدو

ورغم ماضيها، المعروف بانخراطها في الميليشيات المسلحة، وإعلانها أنّها ليست مؤمنة، إلا أنّ الرئيسة البرازيلية وقتها، ديلما روسيف، من حزب العمال، حضرت المراسم، مثّلها في ذلك نائبها ميشيل تامر الذي تولى الرئاسة خلفاً لها، ويستعدّ حالياً لتسليم السلطة للرئيس المنتخب، جايير بولسونارو، كما ظهرت في ذلك الحدث مجموعة من أبرز الوزراء، وكذلك جيرالدو ألكمين حاكم ساو باولو، وفرناندو حداد عمدة المدينة، وأيضاً المرشحون الرئاسيون عن الحزب الاجتماعي الديمقراطي البرازيلي، وحزب العمال، في انتخابات تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٨؛ هكذا جمعت الكنيسة الفرقاء السياسيين من كلّ الأطياف، ما يعطي صورة واضحة للغاية حول حجم الثقل الذي اكتسبه الإنجيليون خلال الأعوام الأخيرة على الساحة السياسية في البرازيل.

وكان صاحب فكرة هذا المشروع الطموح؛ الأسقف إيدير ماسيدو، قائد (الكنيسة العالمية لمملكة الربّ)، وأحد أبرز رموز الطائفة الإنجيلية في البرازيل، والذي يتمتع في الوقت ذاته بثروة هائلة، ورغم أنّ ماسيدو كان من أبرز أنصار لولا دا سيلفا من قبل، إلّا أنّه كان من أهم العوامل المؤثرة التي أسهمت في فوز بولسونارو بالانتخابات الرئاسية الأخيرة، كما أنّ هذا العسكري السابق، الذي انخرط في مجال السياسة، اعتمد أيضاً على شبكات التواصل الاجتماعي، وكذلك شبكة «تي في ريكورد» الإعلامية المؤثرة، التي يمتلكها ماسيدو.

أما في المكسيك؛ فقد تحالف حزبا حركة التجديد الوطني (مورينا)، مع حزب (الاجتماع الاجتماعي)، ذي الخلفية الإنجيلية، بهدف حشد أكبر قدر ممكن من الدعم لصالح أندريس مانويل لوبيث أوبرادور، قبيل الانتخابات الرئاسية الحاسمة، في تموز (يوليو) ٢٠١٨، وقد أسفرت النتائج لاحقاً عن فوز مضمون للوبيث أوبرادور، بفضل هذا التحالف، الذي كان له الفضل في إيصال الرجل إلى القصر الرئاسي، بعد أن كانت جميع استطلاعات الرأي تشير إلى انتصاره، وحصول الأحزاب الثلاثة على أغلبية واسعة في غرفتي البرلمان الفيدرالي.

ومن جانبه، وحرصاً منه على أصوات الإنجيليين، سعى لوبيث أوبرادور لجذبهم إليهم، رغم تأكيده طوال نصف عام على أنّه لا علاقة له بحزب (الاجتماع الاجتماعي)، ولن يقترن اسمه به قط يوماً ما، وفي اليوم الذي أعلن فيه ترشحه للانتخابات، ممثلاً للمحافظين المتشددين، وفي خضم الحملة الانتخابية، أكّد أنّه «مسيحيّ بكلّ ما تحمله الكلمة من معانٍ، لأنّ المسيح هو الحبّ».

«الكنائس الإنجيلية تمنح القضايا المحافظة في أمريكا اللاتينية، والأحزاب السياسية تحديداً، دفعة جديدة وكتلة تصويتية جديدة»

وتمتلك جواتيمالا، في الوقت الراهن، رئيساً إنجيلياً؛ هو جيمي موراليس، رغم ضعف أو انعدام الخبرة السياسية لدى انتخابه، والأمر نفسه ينطبق على كوستاريكا؛ التي كانت على وشك أن يرأسها إنجيلي آخر بعد فابريثيو ألبارادو. وفي تشيلي؛ اعتمد سباستيان بينييرا على أصوات الإنجيليين في الانتخابات الأخيرة؛ بل ضمّ في حملته الانتخابية أربعة أساقفة إنجيليين، كما ترشّح القسان الإنجيليان؛ خابيير برتوتشي، وخورخي أنطونيو تروخيو، في الانتخابات الرئاسية في كلّ من فنزويلا وكولومبيا، رغم فرصهما الضئيلة. وأخيراً انتخب جاير بولسونارو رئيساً للبرازيل، في ظلّ دعم حاشد من الكنائس الإنجيلية.

رئيس جواتيمالا الإنجيلي جيمي موراليس

الدخول الإنجيلي إلى السياسة

كي ترفع من قدرتها على الحراك السياسي، تحظى التيارات الإنجيلية بعامل لا تتمتع به الأحزاب التقليدية، خاصّة الأكثر محافظة، ألا وهو القرب من الطبقات الشعبية، التي سئمت من النخب، والتي اعتادت منح أصواتها بشكل مستمر لأحزاب اليسار، كما أنّ التيارات الإنجيلية تملك شبكة واسعة من دور العبادة موزعة على جميع أنحاء البلدان، فضلاً عن مجموعة من وسائل الإعلام ذات التأثير القوي، تضمّ مئات أو آلاف من محطات الإذاعة والقنوات التلفزيونية، تصل للقواعد الشعبية بكلّ يسر، علاوة على وجود قويّ عبر منصّات التواصل الاجتماعي.

بهذه الطريقة، لا يستفيد الإنجيليون من الأرضية التي تفقدها الكنيسة الكاثوليكية فحسب؛ بل أيضاً السخط الاجتماعي الهائل تجاه السياسة والحكومات، ومع حضور قوي في الأحياء الشعبية، تقدّم الكنائس الإنجيلية إلى شرائح مختلفة من المجتمع، خاصّة تلك الأشدّ احتياجاً، جميع صور المساعدة، بدءاً من الرعاية الصحية، أو الأبناء، وحتى البحث عن فرص عمل، وتعجز أيّة حركة سواء كانت سياسية أو اجتماعية، أو منظمة غير حكومية أخرى، أو حتى الأحزاب اليسارية، على وجه الخصوص، عن منافسة الكنيسة الإنجيلية في مضمار الخدمات المتنوعة التي توفرها الأخيرة، والتي تسمح لها بمزيد من التداخل مع المجتمع.

عموماً؛ لا وجود لنموذج إقليمي بعينه للحراك والانخراط في السياسة الذي تقوم به الكنائس الإنجيلية؛ ففي بعض الدول يمكن لأتباع هذه الكنائس الخروج إلى الشوارع، للتظاهر ضدّ مقترحات قوانين ترى الكنيسة أنّها تتناقض مع معتقداتها، وفي دول أخرى تمتلك الكنائس مجموعات سياسية تمثلها، ويصل الأمر في بعض الحالات إلى وجود مرشحين رئاسيين عن الكنائس الإنجيلية.

بيد أنّه، رغم الخصائص المميزة لكلّ دولة؛ فإنّ المظاهر السياسية ذات الخلفية الإنجيلية تأخذ منحنى الصعود، وبصورة أقوى، في كلّ مدى على الخريطة السياسية بأمريكا اللاتينية؛ فحتى وقت قريب مضى؛ كانت أغلب الخيارات المتاحة أمام الكنائس الإنجيلية المنخرطة في السياسة والأحزاب التي تدعمها تقتصر على المستويات المحلية والإقليمية وحضور برلماني، ولا تشمل المنافسة على مناصب تنفيذية، إلّا أنّه بالنظر للنتائج التي أسفرت عنها الانتخابات مؤخراً في المنطقة، يمكن –بسهولة- رؤية أنّ هذا الوضع قد تغيّر وبوتيرة متسارعة.

ويصوّر هذا الوضع، بكلّ وضوح ودقّة، أهداف النشاط السياسي الإنجيلي، وقصوره، في الوقت ذاته؛ فالكنائس الإنجيلية اعتادت ممارسة قدر متصاعد من الضغط في النقاش السياسي حول ما يخصّ القيم والأخلاق: الأسرة والنوع والجنس، وتعد هذه الممارسة أحد ملامح نشاطها، وكما يحدّد خابيير كورواليس «أيدولوجية القساوسة الإنجيليين متباينة»، فيما يتعلق بملفات النوع والجنس؛ حيث يلجؤون دائماً للحديث عن «قيم.. المحافظة، الأبوية، المعادية للمثلية الجنسية».

مثلما ذكرنا آنفاً؛ فإنّ الأجندة الأخلاقية والسياسية الإنجيلية تدور حول الدفاع عن قيم الأسرة، ما يعني بشكل أساسي رفض الإجهاض والتلقيح الاصطناعي، وزواج المثليين، والانفصال، والقتل الرحيم، وباستثناء فقط؛ حين يتعلق الأمر بالدفاع عن الأسرة المسيحية وقيمها، تميل مقترحاتها نحو رفض مسائل بعينها، بدلاً من دعم مقترحات محددة، وفي «باقة» الرفض هذه؛ تحتل «الأيدولوجية الجنسانية» الشريرة مركز الصدارة، وقد ساهمت مكافحة هذه الأيدولوجية في استقطاب عدد كبير من الأتباع، إلّا أنّ الأمر لا يتعلّق بإرث

حصري يحتفظ به القياديون الإنجيليون؛ حيث إنّ قطاعاً لا بأس به من المؤسسة الكاثوليكية، وعدداً ليس بقليل من رجال الدين، كشفوا علانية رفضهم لها.

ويستغل هذا التعريف، المنبثق من رؤية محافظة، بشكل معتاد للقضاء على أيّة محاولة للدفاع عن الجنسي، واختلاف الهويات الجنسية، بداعي أنّ كل ذلك يمثل أيديولوجية، وليس منهجاً علمياً للتعاطي مع المشكلة، أو موقف الأخصائيين النفسيين والأطباء الآخرين، ويقول كورواليس: إنّ «أيديولوجية النوع تسمح للإنجيليين بإخفاء كراهيتهم للمثلية الجنسية وراء ستار حماية القصر».

«يبلغ عدد الكاثوليك بأمريكا اللاتينية اليوم ٤٢٥ مليون شخص، أي ما يمثل ٦٠٪ من سكان المنطقة»

أما المحور الآخر المحرك لأتباع الكنائس الخمسينية والخمسينية الجديدة؛ فكانت مكافحة الفساد وانتقاد دور السياسيين في ذلك الصدد، وتمكن -بالنظر إلى كلّ هذه الملفات- ملاحظة وجود تقارب ملفت للانتباه بين الكنائس الإنجيلية، والمؤسسة الكاثوليكية، وحركات اجتماعية-مسيحية، وأحزاب سياسية ذات خلفية محافظة، وتمكن رؤية هذا التوافق بصورة أوضح في مناسبات بعينها، خاصة حين يصل الموقف درجة الفضيحة، وتتبارى وسائل الإعلام في الحديث عنه.

بيد أنّ الزعماء الإنجيليين، وممثليهم السياسيين، والمتحدثين باسمهم في وسائل الإعلام، لا يقدّمون عادةً أيّة رؤى تجاه ملفات أخرى أساسية في إدارة الدولة، مثل الاقتصاد أو العلاقات الدولية، لكن يجدر بنا الانتظار لمعرفة ما إذا كانوا سيستمرون على هذا النهج، حتى بعد حصولهم على مزيد من التمثيل داخل المؤسسات الحكومية، والدوائر الأرفع من حيث المستوى.

يتميز الأشخاص الذين ينتمون للطائفة الإنجيلية بالانضباط الشديد؛ فصوت قساوستهم هو مرجعية واضحة، وبالطبع يكون كذلك أثناء التصويت، وبغضّ النظر عن مواصفات المرشحين، لكن عندما تحين الانتخابات فإنّ توجّهاتهم السياسية لا تصنع الفارق وحدها؛ بل أيضاً توصيات رجال الدين، في آلية تشبه تلك التي ظلّت سارية طوال عقود داخل الأحزاب الشيوعية، التي هيمنت عليها فكرة المركزية الديمقراطية.

بالتالي، واستناداً إلى الثقل المتزايد والانضباط أثناء الاستحقاقات الانتخابية، أصبح الصوت الإنجيلي مرغوباً بشدة من جانب جميع المرشحين تقريباً، على اختلاف توجّهاتهم السياسية والفكرية، وقد تكرّرت هذه الظاهرة في كلّ من كولومبيا والبرازيل والمكسيك، وستظهر مرة أخرى في دول أخرى بأمريكا اللاتينية؛ التي ينتظر أن تجرى فيها انتخابات قريباً.

ولا يجب إغفال أنّ عام ٢٠١٩ سيشهد انتخابات في جواتيمالا والسلفادور وبنما والأرجنتين وأوروجواي وبوليفيا، ما يشكّل فرصة سانحة لتقييم سلوك الصوت الإنجيلي في جميع هذه البلدان.

وفي دولة مثل البرازيل؛ تتركز سطوة الإنجيليين البرلمانية فيما يعرف باسم «مجموعة الكتاب المقدس»؛ فقد كانت الكنائس الإنجيلية ممثلة خلال الدورة البرلمانية السابقة بـ ٨١ نائباً (من إجمالي ٥١٣)، فضلاً عن ثلاثة أعضاء في مجلس الشيوخ (من إجمالي ٨١ سيناتور)؛ لذا ارتأت الكنائس الإنجيلية تشكيل مجموعة برلمانية متماسكة، ومنظمة على نحو جيد، تسمح لهم بالتصدي للممارسات المناهضة لها. وكانت هذه المجموعة هي المسؤولة عن طرح جميع المبادرات الخاصة بتقنين الإجهاض والزواج بين الأشخاص من الجنس نفسه، الذي سمحت به المحكمة العليا البرازيلية عام ٢٠١٤، وقد تأسست مجموعة (٣ بي)، لدعم الرئيس بولسونارو، التي تضمّ كلّاً من «مجموعة الكتاب المقدس»، متحالفة مع المدافعين عن حرية اقتناء الأسلحة للدفاع عن النفس، وكبار المنتجين الزراعيين، وأرباب أعمال مشروعات الثلاجات.

بابا الفاتيكان فرانسيس

ونتيجة للضغط الذي مارسته الكنائس الإنجيلية، تمكّنت من إغلاق بعض المعارض الفنية، باعتبار أنّها تقدّم محتوى يتنافى مع الأخلاق، وقد حدث ذلك أثناء معرض نظمه مركز «سانتاندير» الثقافي، في مدينة بورتو أليجري، والذي اضطر لإنهاء فعالياته بعد قليل من تدشينها، في أيلول (سبتمبر) ٢٠١٧، وكانت الادعاءات تتركز حول أنّ مصرف «سانتاندير»، الذي كان يرعى الحدث، يشجع على «دعارة الأطفال وممارسة الجنس مع الحيوانات والإباحية»، وذلك وفق ما روّجت له «حركة البرازيل الحرة»، ومجموعات إنجيلية أخرى، في خضم حملة ضارية عبر الشبكات الاجتماعية أجبرت المنظمين على إنهاء الحدث.

الحضور الإنجيلي للكنائس الإنجيلية

شهد الوجود الإنجيلي في أمريكا اللاتينية، خلال العقود الأخيرة، تزايداً مطّرداً، رغم أنّ هذا الصعود لم يكن بالوتيرة نفسها، ويتحكم في ذلك عاملان؛ الازدياد المستمر في عدد المسيحيين من غير الكاثوليك، ما يمثل تحدياً بالنسبة إلى مؤتمرات الأساقفة المختلفة؛ ومن ناحية أخرى؛ الإحباط المتنامي من السياسيين والأحزاب، ما أسهم في ظهور خيارات جديدة.

وفي الوقت الحالي؛ يمثل الإنجيليون ٢٠٪ من سكان أمريكا اللاتينية، وتكتسب هذه النسبة أهمية كبيرة إذا قورنت بـ ٣٪، قبل ٦٠ عاماً، وفق البيانات التي كشف

عنها معهد «بيو» للأبحاث، وطبقاً للمعهد؛ فإنّ ١٠٪ من سكان المكسيك هم من الإنجيليين، وترتفع النسبة إلى ١٥٪، في بيرو والإكوادور وكولومبيا وفنزويلا والأرجنتين وبنما، وإلى ٢٠٪ في كوستاريكا وبويرتوريكو، وتتراوح بين ٢٢٪ إلى ٢٧٪ في البرازيل، ويتجاوز الرقم ٤٠٪، في بعض دول أمريكا الوسطى، مثل جواتيمالا وهندوراس ونيكاراجوا.

ويعود الصعود الإنجيلي، بالأساس، إلى تراجع مواز للكاثوليكية، كما أشير سابقاً، وعوضاً عن «لاهوت التحرير» الذي روّج له قساوسة ثوريون وعمّال ومزارعون، عرف القساوسة الإنجيليون، خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كيف ينشرون بين أتباعهم بنجاح كبير ما يعرف باسم «لاهوت الازدهار»، وهو المفهوم الذي تعبّر عنه، بكل وضوح، المبادئ والمصالح التي تحرّك المؤمنين به.

واليوم؛ يبلغ عدد الكاثوليك في أمريكا اللاتينية ٤٢٥ مليون شخص، أي ما يمثل ٦٠٪ من سكان المنطقة، بحسب أحدث إحصاءات «لاتينوبارومترو»، كما أنّ هذا الرقم ذو حيثية أيضاً؛ لأنه يعني أنّ ٤٠٪ من الكاثوليك على مستوى العالم يعيشون في أمريكا اللاتينية، ويجب أن نضيف هنا معلومة أخرى بالغة الأهمية؛ هي أنّ بابا الفاتيكان فرانسيس (خورخي ماريو برجوليو)، الذي تولّى المنصب منذ آذار (مارس) ٢٠١٣ أرجنتيني الأصل، لكنّ ذلك لا ينفي أنّ الأغلبية الكاثوليكية تراجعت بشكل ملحوظ، مقارنة بنسبة الـ ٨٠٪ التي سجلت عام ١٩٩٦.

وبالنظر إلى هذه العملية الثنائية من تراجع أعداد الكاثوليك، وما يقابله من ازدياد الإنجيليين، من الضروري أن يقودنا ذلك نحو سؤال حول الهجوم المنظم على لاهوت التحرير من قبل الفاتيكان والمؤسسات الكنسية الإقليمية؛ حيث تمّ نبذ «لاهوت التحرير»، وبالتالي هجر الكنيسة الكاثوليكية لقطاعات شعبية.

وقد بدأت بعض الكنائس الإنجيلية ترصد مؤشرات تدعو للقلق فيما يخص شبه العسكرة، ومن أوضح النماذج لها؛ ما يعرف باسم «مصارعو المسيح»، التي تنتمي إلى «الكنيسة العالمية لمملكة الربّ؛ وذلك يعني أنّ هناك أتباعاً حصلوا على

تأهيل عسكري من نوع ما، رغم أنّ هذه ليست ظاهرة جديدة لا داخل ولا خارج أمريكا اللاتينية، مثل منظمة «جماعة الحياة المسيحية» الكاثوليكية البيروانية، التي كانت تحاول أن يعيش أعضاؤها في المجتمع بوصفهم «جنود المسيح»، وهي ظاهرة ينبغي متابعتها عن كثب.

وقد اعترف بابا الفاتيكان السابق، يوحنا بولس الثاني، عام ١٩٩٧، بهذه الجماعة، التي يقودها علمانيون، كما لا يمكن نسيان جماعات أخرى كاثوليكية علمانية، تأسست في البرازيل، في أعقاب الثورة الكوبية، قبل أن تنتشر في أرجاء واسعة من أمريكا اللاتينية، وشنّت حملة قوية ضدّ لاهوت التحرير.

ويبقى السؤال: هل تتحول الكنائس الخمسينية والخمسينية الجديدة نحو الحراك المباشر عن طريق أصوات أتباعها الانتخابية؟

مصدر الترجمة عن الإسبانية: https://goo.gl/YfSxLg

داردو سكافينو:
الجهاديون ليسوا حفنة من الحمقى

علي نوار
كاتب ومترجم
مصري

أجرت مجلة «إنفوباي» مقابلة مع الفيلسوف الأرجنتيني المقيم في فرنسا، داردو سكافينو، حول كتابه الجديد «حلم الشهداء»؛ الذي نال عنه جائزة «أناجراما»، عام ٢٠١٨، وتطرّق الحديث فيه لملفّات عدّة، من بينها: الجهادية، ودور الولايات المتحدة كمحرّك في النزاعات، ومناهضة الرأسمالية عن طريق الأصولية، وموضوعات أخرى، وأبرز سكافينو؛ «أختلفُ كلّية مع الخطاب الذي ينزع أيّ منطق عن الفكر الجهادي».

ويسلّط مؤلّف «حلم الشهداء» الضوء في كتابه على حرب تدور رحاها منذ ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، يشنّها شباب مسلم، ينتمي بعضهم للجيل الثاني من أسر وُلدت في أوروبا، لكنّهم انخرطوا في صفوف تنظيم «داعش»، وباتوا مستعدّين للتضحية بأرواحهم ضدّ ما يمكن أن يُطلق عليه «الغرب وسياساته الاقتصادية والعسكرية»، خاصة تلك التي تُطبّق منذ انهيار سور برلين، عام ١٩٨٩.

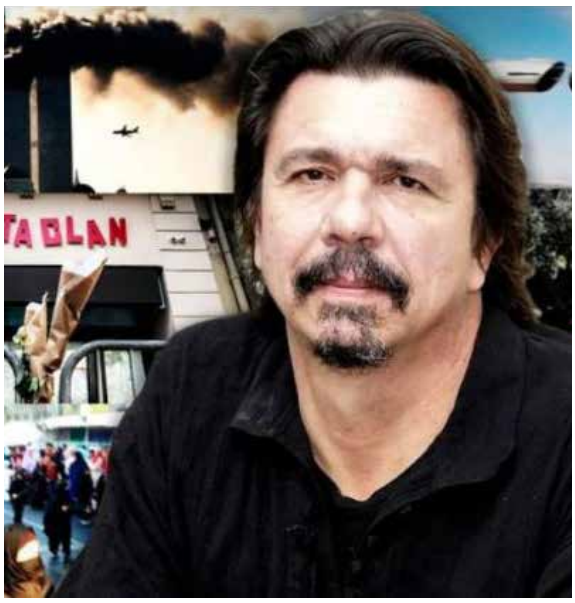

داردو سكافينو

لكن ما الذي حدث في ذلك الوقت؟ أصبح مقاتلو الحرية أو (المجاهدون)، وهي؛ الجماعات المسلحة، مثل؛ تنظيم القاعدة، بقيادة أسامة بن لادن، والتي كانت تقاتل ضدّ الشيوعية في أفغانستان ودول عربية أخرى، بلا غطاء أو دعم؛ حيث إنّ السلاح والمال وتأشيرات السفر من الولايات المتحدة، وانتقلوا إلى خندق الأعداء.

«سكافينو: الحلّ إزاء تصاعد وتيرة العنف ليس عسكرياً بل سياسي»

وخلافاً للحروب العالمية؛ حيث أفضت المواجهة بين الدول ذات السيادة إلى سباق تسلّح محموم، فإن ّهذه الحرب على وجه التحديد تتّسم بقدر كبير من عدم التماثل، من حيث التكتيكات التي ينتهجها كلّ طرف من أطراف النزاع: الحزام الناسف في مواجهة الطائرة بدون طيار (درون) المُسيّرة عن بعد، والتي تحلّ بدلاً من الجندي في جبهة القتال، بهدف الحدّ من أيّة خسائر بشرية، إنّها كذلك حرب غير مُعلنة، رغم أنّها قابلة للاندلاع في أيّة نقطة بالعالم.

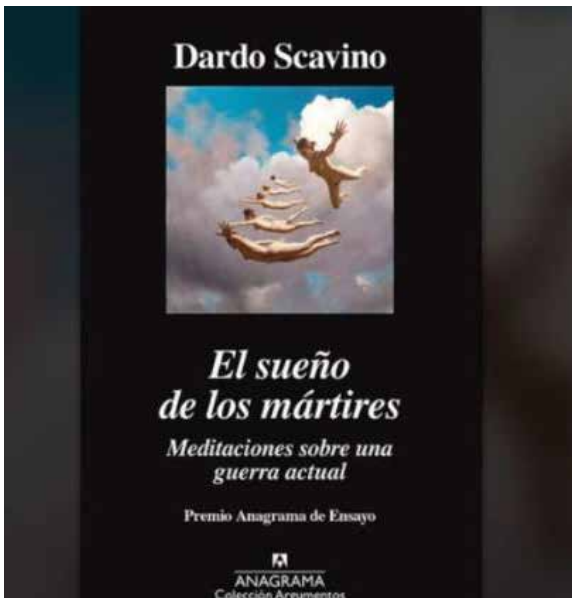

«حلم الشهداء» (Anagrama)
بقلم داردو سكافينو

يقصّ علينا سكافينو رواية تجمع بين اللاخيال والدراسة التاريخية والنقد الثقافي والاقتصادي والاجتماعية، وهو منظور لا يُدرّس في المؤسسات الأكاديمية، لكنّه أتى بثماره حين كان يحاضر في جامعة بوردو، عندما وقعت هجمات مدريد، عام ٢٠٠٤، ونظّم بعض طلّابه وقفة لمدة دقيقة حداد خارج القاعة، رغم أنّ طلاباً آخرين، من أصول مغاربية، فضّلوا البقاء في مقاعدهم بداعي أنّه «حين يقتلوننا نحن، لا يقفون دقيقة حداد».

بيد أنّ السؤال الذي لطالما طفا على السطح هو؛ مَن «نحن» هؤلاء الذين يشعرون بالتقليل من شأنهم على يد الثقافة الغربية؟ وكما هو واضح، فإنّ هذه طريقة لاستيعاب ما نطالعه في الصحف، تحت عنوان «الحرب ضد الإرهاب»، وهو التعبير الذي يتجنّبه سكافينو قاصداً، كما أنّ ذلك يعدّ مفتاحاً لاستكشاف «المنطق» الكائن وراء التحول نحو الأصولية الإسلاموية، وفي هذه المقابلة؛ يسترجع سكافينو كيف أنّ الغرب نفسه هو من كان يغذّي «الوحش»، الذي يحاول اليوم، بلا جدوى، مقاتلته، لوقف تمدّد الكتلة الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتي البائد.

س. إلى أيّ من الحجج أو النقاط المشتركة في ظاهرة الإرهاب يتوجّه كتابكم الجديد؟

بشكل أساسي ضدّ بعض الأحكام المسبقة التي كانت لديّ أنا شخصياً قبل الدراسة؛ أحدها كان الرافد الديني للفكر الجهادي..، والهدف الأبعد المتمثّل في إقامة الخلافة، لكنّ الدوافع وراء انخراط الجهاديين في هذه الحركة؛ حيث يسافرون إلى سوريا أو العراق للقتال (رغم أنّ ذلك يحدث اليوم بدرجة أقل) وينفّذون هجمات، تنبع من أسباب سياسية أكثر منها دينية، الدليل على ذلك؛ أنّ أغلب هؤلاء لا يملكون أيّة خلفية دينية، بعبارة أخرى؛ ليسوا مؤمنين، ولا ينتمون لتيارات أصولية دينية، ولم يستطع أيّ منهم أن يتلو على القاضي أركان الإسلام الخمسة.

س. هل لذلك ترفض أفكار صامويل هنتنغتون حول «صراع الحضارات»؟

نعم؛ لأنّ فكرتي هي أنّ الصراع ليس بين حضارتين؛ بل بين طريقتين لتأويل العلاقة بين الفرد ومجتمعه. ترمز الدرون للنيوليبرالية التي ترى الحرية على أنّها عدم تضحية الفرد من أجل المجتمع، بينما ينظر الفكر الجهادي للحرية على أنّها تتضمن قدرة الفرد على التضحية بأهوائه الشخصية في سبيل المجتمع.

س. لماذا اخترتم صامويل هنتنغتون لدراسة هذا الصراع؟

لأنّ هنتنغتون يفترض أنّه عقب انتهاء صراع الأيديولوجيات، فسنكون بصدد صراع بين الثقافات، وأنّ كلّ ثقافة تعود بجذورها إلى دين، وما أحاول إظهاره في كتابي كيف أنّه لا وجود لثقافة إسلامية ولا غربية متجانسة، ينتمي الكثير من هؤلاء الشباب، الذين نفّذوا اعتداءات داخل أوروبا (حيث وُلدوا) إلى ثقافة غربية ومعاصرة تماماً، فعلى سبيل المثال؛ يتذكّر المسلمون الفرنسيون، ليس الجنود الذين سقطوا في ميادين القتال، ولا هؤلاء الذين قدّموا أرواحهم في سبيل الله؛ بل المدنيون الأبرياء الذين لقوا حتفهم جراء القصف؛ أما الفرنسيون غير المسلمين فإنّهم يؤبنون ضحايا الهجمات، ومن هنا تظهر عبارة «حين يقتلوننا لا أحد يقف دقيقة حداد»؛ لأنّ لا أحد سيطلب إلى العدو رثاء ضحايانا.

الأسترالي خالد شروف، مع أبنائه

س. لماذا ترون أنّ هجمات ١١ سبتمبر كانت إيذاناً ببدء ما تسمّونه «الحرب العالمية الأولى»؟

لأنّه من هنا بدأت سلسلة من عمليات تجنيد الشباب الأوروبيين الذين انضمّوا للحركة، لكنّ ظاهرة الجهاد كانت هي ما أدّت إلى تحوّل الشباب نحو الإسلام، وليس الإسلام هو ما حوّلهم إلى جهاديين؛ كان الشباب هم من رفعوا راية التمرّد في وجه النظام الرأسمالي، وبدل سلوك مسار آبائهم بالاتجاه نحو اليسار، اختاروا الإسلام أيديولوجية جامعة.

س. ما المظاهر الغربية التي يتمرّد عليها الشباب؟

حسناً، تتلاقى الحركات الجهادية بعض الشيء مع قطاع من الحركات اليمينية المتشددة في الوقت الحالي، التي يرجع صعودها إلى منظّري الفكر الجهادي، يؤمن الجانبان بالتمرّد كطريقة للعودة إلى المنظومة الأخلاقية والدينية، التي دمّرتها الرأسمالية، إضافة إلى جميع الروابط المقدّسة.

س. من هم هؤلاء «الشهداء»؟ وما هو «الحلم» الذي يتحدّث عنه العنوان؟

العنوان مُستلهم من رواية «حلم الأبطال»، للكاتب الأرجنتيني، أدولفو بيوي كاساريس، لكنّ الحلم في هذه الحالة هو خطاب يجذب الشباب الجهاديين؛

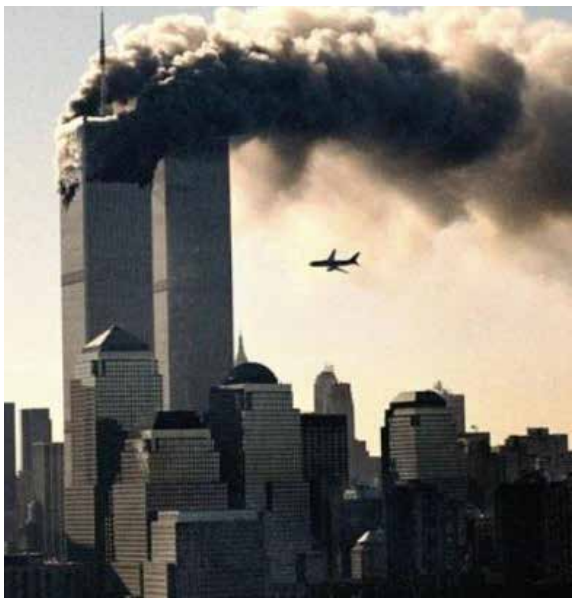

الهجوم على البرجين

..، وهم هؤلاء الذين يثبتون ولاءهم لمعتقد ما بأفعالهم، ويقدمون حياتهم تضحية في سبيل قضية أو قيم أسمى تستحق الدفاع عنها، هذا الأمر شوهّته النيوليبرالية، وأضفت عليه أبعاداً سلبية؛ لذا فإنّ الغرب لا يؤّبن جندياً سقط في ميدان المعركة (نصب تذكاري للأبطال، مثلما حدث مع ضحايا الحربين العالميتين)؛ بل الضحايا الأبرياء، الذين تعرّضوا لنوع من العنف السياسي، لكن دون وجود قضية بعينها، وحتى عند وفاة أشخاص لطالما حملوا لواء الدفاع عن قضية ما، يكون هناك ميل للفصل بينهم وبين القضية؛ حيث يتحوّلون إلى ضحايا أبرياء، كما لو كانت البراءة تعني بالضرورة غياب القضايا التي تحرّك هؤلاء الأشخاص.

س. رغم الاتجاه نحو غرس مفهوم «الضحية البريئة»، إلّا أنّ كتابكم يظهر كيف أنّ السياسة التي اتّبعتها الولايات المتحدة تجاه الدول العربية ساهمت بشكل أقوى من الدين في تشكيل الحركات الجهادية.

هذه هي الفرضية الرئيسة من وجهة نظري؛ لأنّني أؤمن بأنّ الحرب الباردة جعلتنا ننسى الحرب التي خاضتها دول الشمال ضدّ دول الجنوب، معركة بين الولايات المتحدة وبعض القوى الأوروبية من جانب، والحركات القومية في دول الجنوب ودول عدم الانحياز، كان الرئيس الأندونيسي السابق، سوكارنو، المدعوم من قبل الحزب الشيوعي أول الضحايا، بعد أن تعرّض لانقلاب عسكري بينما

واجه أنصاره المذابح على يد حزب أصولي كانت الولايات المتحدة تدعمه، وهي المذابح التي نقلتها السينما في فيلم «عام العيش في خطر»، أما جماعة «الإخوان المسلمين»؛ التي تعد المعمل الأيديولوجي الأكبر للفكر الجهادي المعاصر حالياً، فقد كانت منظمة مدعومة من الولايات المتحدة في مصر لمناوءة نظام الرئيس الأسبق، جمال عبدالناصر، الذي كان أحد المشاركين في مؤتمر «باندونج» للدول الأعضاء في منظمة دول عدم الانحياز، لمواجهة الكولونيالية الجديدة، وحتى حركة حماس حصلت على الدعم لعرقلة حركات التحرر الوطني، مثل منظمة التحرير الفلسطينية.

«هنتنغتون يفترض أنّه عقب انتهاء صراع الأيديولوجيات، فسنكون بصدد صراع بين الثقافات وأنّ كلّ ثقافة تعود بجذورها إلى دين»

بمعنى أنّه؛ من أجل فهم الحركة الجهادية في الوقت الحالي، ينبغي أن نحلّل أولًا ما كان إستراتيجية الشمال في مواجهة الجنوب، منذ مؤتمر «باندونج»، عام ١٩٥٥، وشروع الولايات المتحدة، منذ ذلك الحين، في دعم كافة المنظمات الدينية الأصولية الموجودة في الدول التي تتجه نحو الاشتراكية والعلمانية، لكنّ هذه السياسة يبدو أنّها ما تزال مستمرة حتى يومنا هذا؛ حيث أسقطوا الرئيس العراقي الأسبق، صدام حسين، أولاً، ثم الرئيس الليبي معمر القذافي، ويحاولون تكرار الشيء نفسه مع بشار الأسد في سوريا. هنا في فرنسا، على سبيل المثال، كشف لوران فابيوس، وزير الخارجية في حكومة الرئيس السابق، فرانسوا أولاند، دعمه لجبهة النصرة، فرع تنظيم القاعدة في سوريا.

س. إذاً، في هذا السياق هل يمكن فهم التيار الجهادي حالياً كظاهرة ناتجة عمّا بعد الكولونيالية؛ أي إنّه يظهر بعد خروج القوى الاستعمارية من المناطق المحُتلة؟

نعم، بالتأكيد؛ لقد كان المخطط البعيد لسيد قطب، كبير منُظّري جماعة الإخوان المسلمين في مصر، يتمحور حول أخذ مكان اليسار القومي في الجامعات، ومناهضة القوى الإمبريالية وحركات التحرير الوطني العلمانية والاشتراكية، وإحلال الحركات الجهادية، وقد نجحوا في ذلك، للأسف، أحدثوا ثورة حقيقية في هذا الصدد.

س. يدفعنا ذلك للتفكير فيمن يحاولون إنشاء خلافة على أنّهم ليسوا حفنة من المخبولين؛ بل أناساً لديهم إستراتيجية سياسية على قدر كبير من الوضوح ويرسمون ملامحها من المنظور الجيوسياسي، منذ مرحلة الجامعة ربما؟

هذا حقيقي؛ إنّ منظري هذه الحركات يقتدون بلينين وتشي جيفارا؛ بل قرؤوا لغرامشي، واقتبسوا من هؤلاء المفكّرين اليساريين إستراتيجيتهم الرامية للوصول إلى انسجام ثقافي وسياسي...

س. الدوافع السياسية والاقتصادية للتيارات الجهادية واضحة بصورة كافية، لكن، في السياق نفسه، ومثلما تذكرون في كتابكم، ربما تكتسب الأصولية الإسلاموية طابعاً مدغدغاً للمشاعر.

ينتج ذلك عن النقطة التي تنكر فيها قطاعات واسعة من مجتمع إسلامي حدوث المحرقة النازية (هولوكوست)، على سبيل المثال، لكن حين يفحص المرء المسألة عن قرب سيكتشف أنّ هذا الإنكار منبعه إنكار مقابل يعانون منه بدورهم: جرائم الاستعمار مثلما حدث في الجزائر أو فظائع مرحلة ما بعد الاستعمار مثلما هو الحال في العراق؛ «إذا لم يعترفوا بضحايانا، فلن نعترف بضحاياهم كذلك»، وصل الأمر إلى الحدّ الذي دفع رسام الكاريكاتير الساخر، الفرنسي من أصل كاميروني، ديودونيه مبالا، الناجح للغاية، والذي بدأ يتعرّض للمقاضاة بتهمة العنصرية، أن ينتهي به الأمر إلى أن يتبنّى مواقف إنكارية مناهضة للسامية، تتشابه إلى درجة بعيدة مع آراء اليمين المتشدد؛ لذا لم يعد يجد قاعة تقبل عرض رسوماته.

داردو سكافينو في برشلونة

س. هناك تصعيد للعنف الرمزي جنباً إلى جنب مع زيادة جرعة العنف المادي والواقعي الذي تحدثه الهجمات الإرهابية.

بالطبع، بدأ الأمر بزيادة وتيرة العنف الرمزي في أعقاب سقوط سور برلين؛ هذه هي تجربتي التي كوّنتها من وجودي في فرنسا، مع مطلع حقبة التسعينيات؛ أنشأنا مجالس كان يشارك فيها الشباب العرب الذين كانوا ماركسيين لهم صلات بحركات في العالم الثالث، هؤلاء الفتية أنفسهم هم من اتجهوا إلى الأصولية الإسلاموية.

س. ومن ثمّ يحدث تمجيد الموت والحرب بهدف بثّ الرعب، وكذلك كي يصبحوا أبطالاً في مجتمعاتهم؟

نعم، إنّه نوع من النرجسية الإعلامية الذي يحوّل الجهاديين أنفسهم إلى رواية ملحمية؛ حيث يلعبون دور البطولة، وكيف أنّهم يهزمون الشيطان الغربي، حالة قاسم في مستهلّ الكتاب تعبّر عن ذلك المفهوم بدقّة، يوجد نوع من الخيال البطولي الذي يدفع هؤلاء الشباب للقيام بتصرّفات غير حقيقية، الأمر أشبه بالعيش داخل أجواء لعبة لكنّها حقيقية، هناك أيضاً التقني المرفّه الذي يوجّه طائرة بدون طيار عن طريق شاشة في الولايات المتحدة، ويطلق النار، محدثاً قدراً كبيراً من الخسائر البشرية، ثم يذهب لاحقاً لاحتساء الجعة داخل الحانة القريبة، بينما يدّعي الجهادي أنّه بطل لعبة الفيديو هذه.

شباب أقسموا بالولاء لداعش قبل ذبح كاهن في نورماندي

س. لكنّ هناك بعداً واقعياً للغاية يحدث، على سبيل المثال، في سوريا والعراق؛ حيث ذهب هؤلاء الشباب الجهاديون، إلى أين يتجه النزاع اليوم في التوقيت الذي تعرّض فيه تنظيم داعش للهزيمة العسكرية في هذه المناطق؟

حسناً، هذه هي النقطة الأهم في الوقت الحالي على صفحات الجرائد؛ لأنّ سوريا والعراق تطالبان فرنسا اليوم بأن تسترد الشباب السجناء على أراضيها؛ لأنّهم مواطنون أوروبيون وأغلبهم من الفرنسيين، ويردّ عليهم الأوروبيون بأنّ هؤلاء الشباب ارتكبوا جرائم خارج أوروبا، ولا يمكن محاكمتهم هناك، الجدل الأكبر الدائر حالياً هو استعادة هؤلاء الجهاديين أم لا، إنّه جدل يشمل أبناء هؤلاء الجهاديين، الذين هم مواطنون فرنسيون أيضاً.

س. رغم هذه الهزيمة العسكرية ما تزال تقع هجمات كبيرة...

إنّها فترات زمنية مختلفة، جاء وقت دعا فيه منظّرو تنظيم داعش إلى الذهاب والقتال هناك،..، لكن فيما بعد، قال أبو مصعب السوري، في «دعوة للمقاومة الإسلامية العالمية»، عام ٢٠٠٥: إنّه يجب تغيير الإستراتيجية وشنّ اعتداءات في أوروبا، بالإمكانات المتاحة بهدف تدميرها من الداخل، وهو ما جعل الحركة ذات طابع شبكي؛ أي إنّه لا وجود لهيكل قيادي رئيس، واليوم ينشر التنظيم قائمة بأهدافه كي ينتقي كل فرد هدفه من بينها.

س. كيف تتوقّعون أن تكون ردّة الفعل تجاه كتابكم في أوروبا، سيما أنّه يضفي لمسة من المنطق على أيديولوجيا يبدو أنّها تفتقر له؟

أعتقد أنّه لا وجود لعدم المنطقية على الإطلاق، يمتلك الجميع نوعاً منها، ورغم أنّ الأمر يبدو لي مرعباً، لكن من الواضح أنّ الخطاب الجهادي يتضمّن منطقاً ما، بالضبط مثلما كان خطاب الفاشية، خاصة أنّ الأمر حدث تاريخياً، مثلما تبنّى أشخاص على قدر عالٍ من الثقافة ذلك الخطاب، مثل هايديجر.

لا أتّفق نهائياً مع الخطاب المنتشر، الذي ينزع كلّ منطقية عن الفكر الجهادي، فكرة أنّ هذا الخطاب يبقى صدى داخل المجتمع؛ فذلك لأنّه يتضمّن شيئاً من المنطق هو الآخر، لكنّ الأصولي ليس أحمق..

س. يخلق كتابكم نوعاً من الحيرة في هذا الصدد: يمكن للمرء أن يأخذ صفّ هؤلاء الشباب المقموعين الذين يعيشون في الضواحي الفرنسية...

نعم، مقموعون أم لا؛ لأنّهم يشغلون مكاناً في المجتمع لم يصل له آباؤهم؛ بمعنى أنّ هناك صراعاً عالمياً، مثال على ذلك؛ حقبة السبعينيات حين شجّع اليمين الفرنسي على أسلمة مسلمي فرنسا؛ لأنّ هذه كانت طريقة لوقف شعبية اليسار بين المسلمين، في المقابل؛ فإنّ اليمين يتبنّى الآن الخطاب العلماني، طرأت على الموقف الدولي تغييرات تصل في صورة تأثيرات على الحياة اليومية في الأحياء المهمّشة.

س. هل يمكن الحديث عن «أسلمة» للضواحي الفرنسية؟

حسناً، اللكنة المستخدمة في هذه الضواحي هي العربية، الأمر أشبه بالحديث بلكنة بوليفية في الأرجنتين، رغم أنّهم ليسوا كذلك، تغيّر الوضع عام ٢٠٠٥ مع نشوب موجة الانتفاضات في أحياء الضواحي، والتي كانت أعنف بكثير من حركة (السترات الصفراء) اليوم، والتي بدأت كاحتجاجات شعبية من الفقراء ضدّ الأغنياء، لكن نيكولا ساركوزي، وزير الداخلية وقتئذ، تغاضى عن القراءة الدقيقة للموقف، وفضّل تحقيق مكاسب سياسية، الأمر الذي جعل الصورة تبدو كما لو كانت ثورة للمسلمين ضدّ الفرنسيين، كانت هذه القراءة الخاطئة ثمينة وذات نفع كبير بالنسبة إلى تنظيم الدولة الإسلامية فيما بعد، هناك ارتباط وثيق الصلة بين الفكر الجهادي واليمين المتشدّد؛ لأنّ انتصار الأخير سيسمح بمزيد من تهميش الشباب المسلمين، وبالتالي اتجاههم للأصولية.

المصدر: مقابلة مع الفيلسوف الأرجنتيني، داردو سكافينو، أجراها الصحفي، أجوستين سكاربيلي، ونشرت على موقع صحيفة «إنفوباي» الأرجنتينية

لماذا يهاجم الجهاديون الصوفيين؟

مدني قصري
كاتب ومترجم
جزائري

منذ أعوام عديدة، والرموز والأماكن المقدّسة التابعة لمختلف الطرق الصوفية، من باكستان إلى مصر إلى مالي، مستهدفة من قبل المتطرفين الدينيين.

في القاهرة، في الأوّل من كانون الأول (ديسمبر) العام ٢٠١٧، يحتفل أتباع الصوفية بعيد المولد الذي يُحيي ذكرى مولد النبي محمد، صلّى الله عليه وسلّم.

أثار الهجوم الذي أودى بحياة أكثر من ٣٠٠ شخص في مسجدٍ صوفي خلال صلاة الجمعة، في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، في سيناء، العديد من الأسئلة حول هذا التيار الباطني للإسلام؛ إذ لم تتبنَّ أيّة جهة عملية القتل هذه؛ فإنّ الخبراء يوجّهون أصابع الاتهام إلى تنظيم داعش.

في ذلك اليوم؛ لقِي ٢٣٥ من المصلين حتفهم خلال الهجوم على مسجدٍ يتردّد عليه الصوفيون، وهم مسلمون ملتزمون بتيار باطني يمقُته الجهاديون في داعش، أليس غريباً أنّ جماعة تدعو إلى الإسلام، مثل داعش، تنقلب ضدّ نفسها، وتهاجم جماعة أخرى تدّعي نفس الإخلاص للإسلام؟ ومع ذلك، فقد وقعت مثل هذه الهجمات في مصر، وكذلك في باكستان؛ حيث تعرّض العشرات من

الصوفية، التي تشتهر بممارستها للإسلام المتسامح، تُعارض تقليديًا التيارات الحَرْفية

الصوفيين كانوا مجتمعين حول ضريح القديس لال شهباز قلندار، للهجوم من قِبل الجهاديين، عام ٢٠١٦، وقد تضاعفت هذه الهجمات منذ عام ٢٠١٠؛ تفجير قبر داتا جانج بخش، واغتيال المطرب أمجد صبري، مثالان آخران على الأعمال البغيضة التي ارتكبها داعش ضدّ الصوفية؛ فمن هُم هؤلاء الصوفيون؟ ولماذا هم مستهدفون من داعش؟

في الأعوام الأخيرة؛ أصبح مجتمع الصوفية مستهدفاً من قبل الفرع المحلي لداعش في هذه المنطقة من مصر، في قبضة العنف الإسلاموي المتطرف، لكن ليس هذا فقط؛ لقد ضاعفت الجماعات الجهادية في الأعوام الأخيرة هجماتها ضد المقدّسات، وأتباع المجالس الصوفية في باكستان وأفغانستان وسوريا، وكذلك في إفريقيا؛ حيث التيار الصوفي منتشرعلى نطاق واسع.

ما هي الصوفية؟

التصوف نهج روحي، يعدّ طريقة باطنية داخل الإسلام؛ يقول إريك جيفروي، عالم الإسلام، والأخصائي في التصوف: «الصوفية أوّلاً وقبل كل شيء، تأمّلٌ باطني، في هذا التأمل لا يوجد مكان للإيجو، أي النفس (الأنا)، الطريقة الصوفية، التي ظهرت منذ فجر الإسلام، تمّت هيكلتها في شكل ما يسمى بالطريقة، منذ القرن الحادي عشر، من قِبل شيوخ روحيّين في جميع أنحاء العالم

الإسلامي، من آسيا الوسطى إلى المغرب العربي، مروراً بالهند وتركيا والقارة الإفريقية، ووفق البلدان والثقافات، يمارس أتباع التيار الصوفي، المجتمعون في زوايا (المباني الدينية)، جلسات الذكر، وحلقات الصلاة، والأغاني (السماع)، والرقصات (الحضرة)، من أجل الوصول إلى حالة أعلى من السموّ الروحي، والسير نحو الله. ومن بين هذه الطقوس؛ عيد المولد، الذي يحتفل بذكرى مولد النبي محمد، صلّى الله عليه وسلّم، وهو من أهم الشعائر عند الصوفية.

«الصوفية التي تعدّ تياراً هادئاً وكتوماً، وغير سياسي، بعض الطرق الكبرى أصبحت مع مرور الوقت مسيّسة ومن الصعب فكّ أسرارها الباطنية»

الصوفية، التي تُعدّ تياراً هادئاً وكتوماً، وغير سياسي مبدئياً، بعض الطرق الكبرى أصبحت مسيّسة مع مرور الوقت، من الصعب فكّ كلّ أسرارها الباطنية، وحتى إن لم يكونوا أعضاءً في الطرق؛ فإنّ الكثير من المسلمين متأثرون إلى حدّ كبير بالثقافة الصوفية التي تتّخذ أشكالاً مختلفة جداً.

في إفريقيا؛ أين ترسّخت الصوفية؟

شهدت الطرق الصوفية تطوراً مهمّاً في جميع أنحاء إفريقيا المسلمة: في مصر، وفي المغرب الكبير، وفي إفريقيا السودانية الساحلية، يقول جان لويس تريود، مؤرخ الإسلام: «في السنغال، في شمال نيجيريا، وكذلك في دول شرق إفريقيا، مثل؛ السودان والصومال وإثيوبيا وكينيا، تتهيكل الصوفية على أخويات متفاوتة في القوة»، «فيما في بقية دول إفريقيا جنوب الصحراء، يوجد المزيد من المجتمعات والجمعيات التي تلتف حول إمام المسجد».

الصوفية أوّلا وقبل كل شيء، تأمّلٌ باطني. في هذا التأمل لا يوجد مكان للإيجو، أي النفس

رهان رمزي للدبلوماسية الروحية

هناك اثنتان من الطرق القوية ساهمت في انتشار الصوفية في القارة الإفريقية: القادرية، المولودة في بغداد في القرن الحادي عشر، وقد انتشرت عبر الصحراء إلى مالي، والتيجانية منذ القرن الثامن عشر، وقد نشرت هذه الأخيرة، دعوتَها من المغرب إلى السودان، ويشير السيد تريود إلى أنّ الطريقة التيجانية التي حظيت باهتمام كبير من قبل السياسيين تتمتع بثقل كبير في السنغال؛ حيث خلقت الصوفية «دولة في داخل الدولة»، لكن في فاس بالمغرب يقع قبر مؤسسها أحمد تيجاني، وبعد أن أصبح هذا الضريح مكاناً للحج، الذي يتردّد عليه المؤمنون من جنوب الصحراء الكبرى، يرى المغرب الصوفية بمثابة رهان رمزي للدبلوماسية الروحية في القارة ولمكافحة التعصّب الديني.

هجمات أخرى ضدّ الصوفيين في إفريقيا

عام ٢٠١٢؛ دمّر أعضاء تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، ضريح القدّيسِين الصوفيين المسلمين في تمبكتو بمالي، تُعرف مدينة مالي باسم مدينة القديسين الـ ٣٣٣، وهي مركز فكري كبير للإسلام، كما تمّ تدمير عشرات الآلاف من المخطوطات التي يعود بعضها إلى القرن الثاني عشر، وبعضها الآخر إلى عصر ما قبل الإسلام.

وهناك هجمات أخرى لم تحظ بتغطية إعلامية واسعة، وهي الهجمات التي استهدفت شرق إفريقيا؛ ففي الصومال، دمّر شباب إسلاميون صوماليون العديد من أضرحة الصوفيين الذين ظلّ السكان المحليون يُبجّلون ذكراهم عبر العصور.

الصوفية بين التسامح والمعارضة

السياسيون وخبراء الفكر ووسائل الإعلام غالباً ما يصورون الصوفية على أنّها نسخة سلمية ومتسامحة ومستقلة ذاتياً وثقافية، للإسلام، وهي النسخة التي ترى حكوماتُ المجتمعات الإسلامية، أو التي لديها أقليات مسلمة، أنه تجب تغذيتها وتعزيزها، فإذا لم يكن هذا التصور خاطئاً بالضرورة، خاصةً في هذه الأيام، فإنّه يجب مع ذلك توخي الحذر، صحيح أنّ الصوفية اليوم أكثر سلمية وتسامحاً من الأصوليين المسلمين (السلفيين).

لكن ليس هذا هو الحال دائماً؛ لطالما فضّل الصوفيون الجهاد الداخلي أو الروحي؛ أي الجهاد الذي يهدف إلى تطهير الروح من دوافعها وأفكارها الخاطئة، على الجهاد العسكري ضد الأعداء الخارجيين للإسلام، وضد المجتمع المسلم (الأمة)، ولكن -كما ورد في كتاب «التصوف الإسلامي: تاريخ قصير»/ (Islamic Mysticism: A short history (٢٠١٠)» للكاتب ألكسندر كنيش (KMYSH ALEANDRE)؛ فقد كانت الصوفية أيضاً بمثابة مصدر للحافز والبنية المؤسسية لحركات المعارضة طوال العصر الحديث، لقد انخرطت حركات صوفية من حين لآخر في الجهاد «الساخن» ضد ما كانت تعدّه انحرافات عن «الإسلام الصحيح» أو تعديات أوروبية استعمارية على الأراضي الإسلامية.

تفاعل الصوفية بعوامل محلية

يتم تحديد تفاعلات الصوفيين مع بيئتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال مجموعة واسعة من العوامل المحلية، بما في ذلك الحسابات العملية، والافتراضات العسكرية والسوقية، والديمغرافية والجيوسياسية. كما تلعب شخصيات القادة الصوفيين أيضاً دوراً مُهماً في مواجهة التحديات أو التهديدات المماثلة، كان ردّ فعل الشيوخ في المجتمعات الصوفية

في الماضي، بطريقة مختلفة تماماً؛ لقد انضم بعضهم إلى سلطات الدولة، بما في ذلك السلطات الاستعمارية، في حين دعا آخرون إلى استخدام أسلحة ضدّ ما يرون أنه تهديد لأسلوب حياتهم ومعتقداتهم، على سبيل المثال؛ ففي إطار الأخوية التيجانية في المغرب الكبير، تعاونت هذه الأخيرة مع الفرنسيين، بينما في شمال القوقاز عارض أتباع الأخوية النقشبادية الروس، وينطبق الشيء نفسه في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، من غرب إفريقيا إلى الصين، كان السلوك السياسي للقادة والمؤسسات الصوفية في القرنين التاسع عشر والعشرين غير متجانس للغاية، ويجعل أي تعميم على التشدد أو الهدوء المتأصل في الصوفية، غير صحيح.

ولادة الخصم الرئيس للصوفية

يقول مارشال هودجسون، المؤرخ الأمريكي الشهير، للمجتمعات الإسلامية: إنّ الصوفية كانت في زمنِ ما قبل الحداثة، وأوائل العصر الحديث «ديناً جماعياً مؤسّسياً»، و«ركيزة النظام الاجتماعي» الدولي»؛ كان للحركات الاجتماعية أو السياسية في ذلك الوقت روابط مع التعاليم والممارسات الصوفية، وغالباً ما تطورت في إطار مؤسسة صوفية («الأخوية» أو «الطريقة»)، وعلى مدى قرون عديدة، كانت الصوفية جزءاً أساسياً من نسيج الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمعات الإسلامية.

لكن في القرن التاسع عشر، أطلقت مجموعةٌ صغيرة نسبياً، ولكنها قوية، من المثقفين المسلمين، حركةً لإصلاحٍ كاملٍ للحياة الإسلامية؛ عندئذ أصبحت الصوفية هدفاً واضحاً لانتقادات هذه الحركة: كانت الصوفية رمزاً قوياً وموجوداً وجوداً كاملاً في النظام القديم، ووفق معتقداتهم الدينية والسياسية، سعى الإصلاحيون إلى استبدالها إمّا بإسلام إصلاحي حديث (غربي) أو بالإسلام المشار إليه جماعياً بإسلام «الأسلاف الأتقياء» (السلف الصالح)، الذي ادعى إعادة إنتاج السلوك المثالي للمسلمين في زمن النبي، صلى الله عليه وسلم، وهكذا وُلد الخصم الرئيس للصوفية: السلفية.

السلفية تغوي وتستقطب العديد من المسلمين الذين غالباً ما يكونون صغار السنّ

التشابه بين السلفيين والبروتستانت

إدانة السلفية العنيفة لجميع أشكال الوسطاء بين البشر والله، سواء تعلّق الأمر بالصوفيين الأحياء، أو بملاذاتهم، تمثل تشابُهاً لافتاً للنظر، مع قبل قرون، برفضِ البروتستانت للعبادات المقدسة، والآثار المقدسة، والرهبنة، في المسيحية الغربية، أضف إلى ذلك الأهمية التي يوليها السلفيون للفهم الحَرفي للكتاب المقدس، بدلاً من القراءة المجازية والباطنية، والتي تعدّ سمة من سمات التفسير الصوفي للقرآن.

نجد هذا الصراع بين الإسلاميين الصوفيين والسلفيين في المجتمعات الإسلامية حول العالم. في كل واحد منهم، يتم تغذية الصراع بعددٍ لا يحصى من السخط المحلي، ويأخذ أشكالاً مختلفة، ولكن النمط العام يظل ملحوظاً، لأسباب مختلفة، أصبحت النسخة المتشددة للسلفية، والمعروفة باسم «الجهادية»، الأيديولوجيا والممارسة المفضلة للأفراد الساخطين في المجتمعات الإسلامية، في العالم الإسلامي، وبين مجتمعات الأقليات المسلمة على السواء.

السلفية تغري الشباب ببساطتها الظاهرية

السلفية تغوي وتستقطب العديد من المسلمين الذين غالباً ما يكونون صغار السنّ، ومتحمّسين لبساطتها الظاهرية؛ فالسلفية تشرح المصير الحالي للعالم الإسلامي بعبارات دينية بحتة، وتدعو المسلمين إلى استعادة أمجاد الإسلام السابقة، من خلال قيادة الجهاد ضدّ أعدائه، وباختيارهم لأهداف «مشروعة»

للجهاد، سواء أكانت مسلمة أم لا، يستخدم السلفيون، الذين يختارون الجهاد معايير خارجية بحتة (الظواهر)، أي مظهر الأعداء وسلوكهم الخارجي. أما التركيز الذي تضعه الصوفية على الجانب الخفي (الباطني) لممارسة بعينها، أو مفهوم أو شخص بعينه؛ فهو مرفوض من قبل السلفية، فهذا التركيز الباطني عند الصوفية تراه السلفية جدلاً عقيماً يحجُب التقسيم الأساسي للعالم بين مؤمنين حقيقيين وخصومهم «الكفار».

الصوفيون يرفضون القراءة الحَرْفيّة للنصّ القرآني

الصوفية، التي تشتهر بممارستها للإسلام المتسامح، تُعارض تقليدياً التيارات الحَرفية (التي تفسّر النص القرآني حَرْفيًا)، يقول عالم الأنثروبولوجيا المغربي، فوزي الصقلي، أحد أشهر المتخصصين في الصوفية «نموذج الأيديولوجية المتطرفة، الوهابي أساساً، هو شكل من أشكال عولمة الدين، والمتطرفون لديهم السلوك نفسه، والأزياء نفسها: يربّون اللحية، ويفرضون ارتداء الحجاب، ...إلخ، كلّ هذا، في رأيهم، يجب أن يكون مُبرمجاً في أذهان الناس ونفوسهم، لأنهم يرون أنّ الإسلام هو نفسه في كلّ مكان وزمان، لكنّ الصوفية تتكيف مع كلّ مكان، ومع كل ثقافة، وكل زمان أيضاً، الصوفية ليست جامدة، على عكس الأيديولوجية الحَرفية، التي لديها هاجس العيش كما كان العيش في زمن النبي».

لماذا يهاجم الجهاديون الصوفيين؟

بحكم قراءتهم الحَرفيّة للقرآن الكريم، يرى المتطرفون، في التعاليم الصوفية انجرافات وانحرافات وثنية؛ يرى المتطرفون طقوسَ المتصوفين للاقتراب من الله، بما في ذلك عيد المولد، بمثابة «ابتكارات هرطقة» (بِدع)، ويضيف فوزي الصقلي: «ربما تبلورت الكراهية في لحظة تاريخية: وصولُ الوهابية في القرن الثامن عشر، والتي انتهى بها الأمر إلى قراءة حَرفية وحصرية للإسلام، إننا نتحدث عن السلفية والجهادية، ولكن الجذور ليست سوى الوهابية، وقد أدت هذه الحَرْفية المتفاقمة في النهاية إلى ظهور أيديولوجية «تكفيرية»، أي إنّ كل من ليسوا على هذا الخط يُعدّون خارج الإسلام».

المتطرفون لديهم نفس السلوك، والأزياء نفسها

داعش والسلفية

يتشبّث الجهاديون في داعش بنسخة متطرفة من السلفية، تيار صارم من تيارات الإسلام، يمارس في بعض البلدان، ويرى الصوفيين زنادقة؛ إنهم يتّهمونهم بارتكاب أكبر خطيئة في حقّ الإسلام، وبالشرك، بسبب لجوئهم إلى شفاعة القديسين الذين ماتوا منذ فترة طويلة، ويُدين السلفيون كلّ ما يصفونه «بالبدع»، سيما الطقوس التي يمارسها الصوفيون، والتي، بحسب اعتقادهم، لم يفرضها النبيّ محمد، صلى الله عليه وسلم، بنفسه؛ «هدفنا الأوّل هو الحرب ضد الشرك والردّة، والصوفية، والسحر والعرافة»، هكذا أطلق، في عام ٢٠١٦، زعيم ديني في المنظمة الإسلاموية.

إنّ عدم أرثوذكسية الصوفية وشعبيتها الكبيرة، في مقابل صعود الجماعات المسلحة الإسلامية المتطرفة التي تهدف إلى «تطهير» وتوحيد الممارسات الدينية، هي السبب في العديد من الاشتباكات في مجتمعنا الحالي.

حرب أيديولوجية

إذا كان الصراع الأيديولوجي يعود لعدة قرون؛ فإنّ الهجمات ضد أتباع

الصوفية ورموزها قد ميّزت السنوات الأخيرة بشكل خاص؛ ففي هذا السياق يأسف السيد الصقلي، قائلاً: «كانت الوهابية محدودة نسبياً، لكن اتفاقية كوينسي الموقّعة بين فرانكلين روزفلت والملك ابن سعود، عام ١٩٤٥، والتي تضمنت حماية المملكة العربية السعودية، سمحت للوهابية بالتوسع، بما في ذلك في إفريقيا التي كانت حتى ذلك الحين قد عرفت إسلاماً مسالماً، من خلال الأخوية الصوفية، في النهاية؛ نجد أنفسنا في نوع من الحرب ضد تراث الإسلام التقليدي نفسه، يقال إنّ المسلمين هم أوّل ضحايا الإرهاب، ولكن ليس فقط في شكل هجمات: إنها حرب أيديولوجية تضرب الدين في قلبه دور السياق المحلي.

رهانات سياسية ضدّ الصوفية

فيما وراء الصراع الديني، ترتبط الهجمات ضدّ الصوفيين بِرهانات سياسية واقتصادية، خاصة بكل بلد، في سيناء، جماعة الطريقة الجريرية، التي استُهدِفت في هجوم ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، مُعترَف بها من قبل المجلس الصوفي الأعلى المصري، ويوضح ذلك المختص إريك جيفوري، قائلاً: «إنّها (أي مصر) الدولة الوحيدة التي لديها مجلس كهذا، مرتبط بشكل وثيق بالسلطة المصرية؛ لذلك، فباعتدائهم على الصوفيين، فإنهم يعتدُون على السلطة المركزية».

الصوفية الهدف الأسهل للجهاديين

أما بالنسبة إلى مالي؛ حيث تدخّلت فرنسا عسكرياً، منذ عام ٢٠١٣، فإنّ الخبراء يفسّرون هدمَ الرموز الصوفية في البلاد على أنّها رغبة في شنّ حرب ضدّ الغرب، فيما يعتمد هذا الأخير (الغرب) على بعض الأخويات المحلية لمحاربة الإسلام الراديكالي. يؤكد جوفروي؛ أنّه «في هذه البلدان، يُنظر إلى الصوفيين في بعض الأحيان على أنّهم عملاء للسلطات الغربية التي جاءت إلى هناك لتدمير الإسلام».

إنّ تدمير أضرحة وكنوز تمبكتو، التي كانت مملوكة سابقاً للعائلات الكبيرة في المدينة، هو الذي أتاح للجهاديين فرضَ قوّتهم وهيمنتهم، ويقول رولاند مارشال، الباحث في مركز «ساينس بو للدراسات والبحوث الدولية» (CERI):

«الصوفية هي الهدف الأسهل، لأنه بمجرد هزيمة الطرق تصبح ممارسة هيمنة الجهاديين أسهل بكثير. في الصومال، على سبيل المثال، عندما يستولي جهاديو حركة الشباب على منطقة ما، فإنهم يدّمرون فيها أماكن العبادة، ويغيّرون طريقة عمل المدارس القرآنية».

علاقات معقَّدة

وعلى هذا النحو؛ تظلّ الهجمات مرتبطة بقوة بعلاقات القوة المحلية، ويستنتج المؤرخ جان لويس تريود أنّ «كلّ هذا يتوقف على السياق، إذا كانت هناك انتخابات جارية، على سبيل المثال، وهناك أيضاً بُعدٌ اقتصادي: في السنغال، نعلم أنّ طريقة المريدين الصوفية تسعى إلى توسيع قوتها الاقتصادية؛ لذا، فالأمر أكثر تعقيداً من مجرد كونه صراعاً بين الصوفية والسلفية».

المصدر: fellows.rfiea.fr ، lemonde.fr/afrique

المسلمون والسياسة في أوروبا: معضلة لا تجد حلاً

علي نوار
كاتب ومترجم
مصري

عندما تقلّد العمالي، صادق خان، منصب عمدة لندن، في أيار (مايو) ٢٠١٦، أبرزت الشبكات الاجتماعية هذا الحدث: خان هو مسلم متدين؛ يعتنق دين والديه المهاجرين الباكستانيين نفسه، اللذين وصلا في حقبة الستينيات إلى بريطانيا، ورغم أنّ خان ولد على الأراضي البريطانية، وعمل محامياً متخصصاً في ملفات حقوق الإنسان، ويتمتّع بمسيرة سياسية لامعة سواء في أوساط حزب العمال أو البلديات، إلّا أنّ انتخابه عمدة لندن كان أمراً فريداً من نوعه؛ نظراً إلى أنّه أول مسلم يتولى عمودية لندن، أحد أقطاب الغرب الاقتصادية والسياسية والثقافية، التي يتمحور حولها قدر كبير من الحراك العالمي عموماً، والفكر الغربي خصوصاً.

ورغم أنّ ذلك قد يعني خطوة للأمام في اتجاه التأكيد على فكرة التعددية الثقافية في أوروبا، ونموذجاً لسياسات الإدماج (حيث يوجد ٢،٤ مليون شخصاً من دول خارج الاتحاد الأوروبي، إضافة إلى هؤلاء المهاجرين الأوروبيين)، إلّا أنّ الهالة البرّاقة المحيطة بانتخاب خان يخفت لمعانها عند الكشف عن بعض الأرقام؛ فوفق دراسة أجراها مركز «بيو» للأبحاث، عام ٢٠١٦: يعدّ المسلمون أكبر الأقليات الدينية عدداً على الأراضي الأوروبية، ويشكّلون ما نسبته ٤،٦٪ من تعداد سكان

أوروبا، وإجمالاً هناك ٢٥ مليون شخصاً يمّثلون ٢٥٪ من السكان في دولة مثل قبرص، و٨٪ في دول مثل فرنسا أو السويد، وتتراوح النسبة بين ٦٪ و٧٪ في بعض الدول مثل؛ ألمانيا وبريطانيا أو النمسا، أما البوسنة والهرسك، الدولة المرشحة بقوة للانضمام إلى النادي الأوروبي، فإنّ نسبة عدد المسلمين فيها هو ٤٦٪ من سكانها، وإذا نظرنا إلى تركيا، التي تحاول أيضاً الحصول على عضوية النادي الأوروبي، فإن النسبة تقفز إلى ٩٩،٨٪ من سكان البلاد.

«يعدّ المسلمون أكبر الأقليات الدينية عدداً على الأراضي الأوروبية حيث يشكّلون ٤،٦٪ من تعداد السكان»

وتكتسب أعداد الأشخاص الذين يكشفون عن كونهم مسلمين أهمية متزايدة في الرأي العام بالقارة العجوز، لكنّ هذا التصور يجري طرحه بشكل ذاتي إلى حدّ بعيد، ويركز في جزء كبير منه على المهاجرين؛ لذا وبناء على دراسة نفّذها مركز أبحاث (تشاتام هاوس)، تضّمنت استطلاعاً للرأي شمل ١٠ آلاف شخص، من ١٠ دول أوروبية، فإنّ: ٥٥٪ من الأوروبيين المشاركين أكدوا ضرورة وقف استقبال الهجرة من الدول الإسلامية، وتصل هذه النسبة إلى ٧١٪ في بولندا، و٦٥٪ في النمسا. نتيجة لذلك؛ أصبحت الهجرة واحدة من أهم الملفات في الحملات الانتخابية في الوقت الحالي، وتثير في كثير من الحالات جدلاً سلبياً في هذا الصدد، وتشكّك بالكامل في فكرة أوروبا المتفتحة المشجعة على الاندماج، كما أنّ تسليط الضوء بصورة مركّزة على أزمة اللاجئين والهجمات الإرهابية، أو التعاطي مع مسألة الاندماج في المجتمعات متعددة الثقافات، لا يسهم بتاتاً في خلق نقاش صحّي، يضاف إلى ذلك غياب التوافق عن التشريعات الوطنية الأوروبية التي تمسّ ملفات مثل منع أو السماح بارتداء غطاء الرأس الإسلامي (رغم قرار محكمة العدل الأوروبي بعدم تمييزية منع ارتدائه في محل العمل)، والرموز الدينية الثقافية الخارجية، وممارسات مثل الصلاة اليومية، أو رمضان، والأعياد الدينية، والإشراف

على المساجد والمدارس القرآنية، أو الممارسات الحلال التي ما تزال هامشية على المستوى العام في أوروبا، ويعزى هذا التباين في السياسات الحكومية إلى اختلاف الواقع ومدى حضور المسلمين في دول أوروبا.

«الهجرة واحدة من أهم الملفات في الحملات الانتخابية وتثير في كثير من الحالات جدلاً سلبياً»

وفي هذا السياق؛ فإن الدول التي شهدت انتخابات عام ٢٠١٧، والتي أيضاً توجد فيها نسبة تفوق المتوسط الأوروبي من السكان المسلمين، ظهر المسلمون ضمن برامج السياسيين الذين خاضوا هذه الانتخابات، كان لهذا الملف أهمية متزايدة سواء في فرنسا (انتخابات برلمانية ورئاسية)، وألمانيا (انتخابات رئاسية وفيدرالية)، والنمسا (انتخابات برلمانية)، وهولندا (انتخابات عامة)، وبريطانيا ما بعد البريكسيت (انتخابات عامة)، سواء لاستقطاب المسلمين الذين يمتلكون حقّ الإدلاء بأصواتهم، أو كي تحصل «المسألة الإسلامية»، إن كان لها وجود حقيقي، على أولوية في الفعاليات الانتخابية. ويحيط بهذا الوضع الجديد، الآخذ في التطور، صعود متزايد للأحزاب الشعبوية واليمين المتشدد؛ حيث تعمل أحزاب مثل؛ الجبهة الوطنية بقيادة مارين لوبان، وبديل لأجل ألمانيا المعادي للأجانب، وحزب الحرية النمساوي اليميني المتشدد، وحزب من أجل الحرية بزعامة خيرت فيلدرز في هولندا، أو حزب الاستقلال البريطاني، على إذكاء وإشعال هذا الجدل، وبفضل ذلك نجحت هذه الأحزاب التي تنتمي للمعسكر الأكثر يمينية في فرض أجندة وإجبار باقي الأحزاب على الانجرار لحالة الجدل والتفاعل معه.

ويعتقد أنّ جذور هذا الوضع تعود لأحزاب الاجتماعيين الديمقراطيين، فمع بداية الهجرة الاقتصادية من الدول ذات الأغلبية الإسلامية في حقبتي الستينيات والسبعينيات، اعتبرتها هذه الأحزاب للمهاجرين حليفاً انتخابياً منطقياً، بوصفهم في الغالب ينتمون للطبقة العاملة، حسبما قال جوناثان لورانس، الخبير في معهد بروكينج حول الإسلام والغرب، كانت هذه الطبقة الاجتماعية تمّثل وقتها قاعدة

ناخبين لهذه الأحزاب، لكنّ الناخبين لم يعودوا حالياً كتلة واحدة كما كانوا في السابق، فبعد الأزمة الاقتصادية، وتغيّر التركيبة الاقتصادية والاجتماعية، عرفت الأحزاب المعادية للأجانب كيف تستغل الوضع لاستقطاب الكتلة الساخطة والمحبطة، وباتت تطالب بخيارات تصل أحياناً حدّ وصم الإسلام بكونه الفاشية الأوروبية الجديدة (وهو الكابوس الفكري والسياسي الأخطر بالنسبة إلى أوروبا)، أو ظهور دعوات لمنع الهجرة من الدول ذات الأغلبية الإسلامية؛ لذا فإنّ احتمالات وجود مواطنين يعتنقون الإسلام بين ناخبي هذه الأحزاب ضعيفة للغاية، وفي الإطار نفسه؛ فإنّ الأحزاب التي لطالما حظيت بدعم هذه الكتلة، تبدو غير قادرة على تبنّي خطاب يضمن الاحتفاظ بالأصوات، ما يجعل قطاعاً من المواطنين يتجه لأحزاب أكثر محافظة، أو حتى متشددة أكثر باتجاه اليمين.

«لا وجود لكتلة إسلامية موحدة بأوروبا ولا نموذج يمكن التصويت له في الاستحقاقات الانتخابية»

وتضاف إلى هذا المشهد عوامل أخرى؛ على رأسها الميول التصويتية لهؤلاء المواطنين: فلا وجود لكتلة موحدة تعرّف نفسها على أنّها إسلامية في أوروبا، ولا نموذج يمكن التصويت له في الاستحقاقات الانتخابية؛ لذا، ونظراً للغياب، يصبح الهدف المراد تحقيقه غير واضح المعالم، ويزداد بروز هذا الوضع في دول مثل فرنسا؛ حيث يحظر إجراء استطلاعات رأي أو إحصاءات عرقية، نظراً إلى تعارضها مع النموذج الجمهوري للاندماج المميز للدولة الفرنسية من أجل مواطنيها.

لكن، بخلاف الناخبين والكتل التصويتية والحملات الانتخابية والسياسات، ومع تنحية الرمزية الكامنة في انتخاب صادق خان كعمدة للندن، فإنّ هناك نماذج عديدة لأشخاص بارزين يعتنقون الإسلام، و/أو ذوي ثقافة إسلامية؛ فقد حصلت راما ياد على اهتمام وسائل الإعلام، قبل عقد تقريباً، في المشهد السياسي الفرنسي؛ فهي امرأة مسلمة، من عرق أسمر البشرة، تولّت منصب وزيرة الدولة للشؤون الخارجية، وكذلك وزيرة الدولة لحقوق الإنسان في حكومة فرانسوا

فيون، خاضت، لمن كان ينظر إليها بوصفها إحدى النساء القويات ونجمات حزب ساركوزي، معترك الانتخابات الرئاسية في ٢٠١٧، للوصول إلى قصر الإليزيه، بعد تأسيسها حزباً مستقلاً، لكنّها لم تحظ بالنجاح.

وفي أوروبا البحر المتوسط، وتحديداً إيطاليا، شغل السياسي، مغربي الأصل، خالد شوقي، مقعداً في البرلمان الإيطالي، ممثلاً لتيار يسار الوسط والحزب الديمقراطي، وقاد شوقي من منصبه عدة مبادرات لتوفير فرص عمل في مجالات، مثل: الصحافة والطب والقانون. وكان شوقي مثل خان وياد، مسلماً متديناً ملتزماً تجاه دينه، وهو ما تأكّد بانتخابه رئيساً للمركز الإسلامي في روما مؤخراً.

بيد أنّه إذا كان تطبيع معاداة الأجانب في السياسة أمراً واقعاً في أوروبا، طبقاً لمنظمة (هيومن رايتس ووتش)، فإنّ هناك خطاباً معتدلاً أيضاً، من قبل سياسيين يعرضون وجهة النظر الأخرى.

لم يتوان النائب البرلماني، سوري الأصل، المنتمي لحزب المحافظين في الدنمارك، ناصر خضر، عن الدفاع عن حرية التعبير، واختار الرسوم الكاريكاتورية عن النبي محمد -عليه السلام- مثالاً على ذلك. هناك أيضاً العمدة أحمد أبو طالب، وهو أحد أعضاء حزب العمال الهولندي، ويرأس مجلس بلدية روتردام منذ ٢٠٠٩، وفي حالته، بوصفه مدافعاً عن الاندماج، لا يفكّر أبو طالب مرتين عندما يتعلّق الأمر بملاحقة وتجريم السلفيين، وإرهابيي تنظيم داعش العائدين، أو بعض المسلمين الذين يبدون غموضاً عند إدانة داعش وممارساته الإرهابية، ومن بين التصريحات التي تعبّر بكل وضوح عن موقفه يأتي: «عندما تسمع ردود فعل المسلمين الحاليين، وكيف أنّ من ارتكبوا هذه الأعمال ليسوا مسلمين، وأنّ هذا ليس هو الإسلام، فإن الأمر يعادل قول إنّ الولايات المتحدة لم تكن هي من شنّت الحرب في فيتنام»، يعد ذلك، وأمثلة أخرى عديدة على الأراضي الأوروبية، ضمن الأسباب التي توضّح سبب أنّ المسلمين في السياسة، سواء كانوا فاعلاً أم مفعولاً به، ما يزالون مزيجاً يصعب تحديده أو تصنيفه أو تعريفه؛ حيث إنّه كان هناك اتجاه لوقت طويل في أوروبا، لتنحية ما له علاقة بالدين إلى الجزء الخاص، وإبعاده عن الساحة العامة.

سليمان بشير ديان..
الفلسفة ليست غريبة عن الإسلام

مدني قصري
كاتب ومترجم
جزائري

سليمان بشير ديان؛ فيلسوف سنغالي، أستاذ الفلسفة، ومدير برنامج الدكتوراه في قسم اللغة الفرنسية في جامعة كولومبيا في نيويورك. في هذا العمل، «الفلسفة ليست غريبة عن الإسلام»، الذي أعيد إصداره للمرة الثالثة، يكشف المؤلف سليمان بشير ديان (Souleymane Bachir Diagne) عالم وثراء الفلسفة في الثقافة الإسلامية؛ ففي الواقع، ليست الفلسفة غريبة عن الإسلام، و«ليست التعبير الطبيعي عن أيّة ثقافة بعينها، ولا عن أي دين بعينه»، ويُذكّر المؤلف، في مقدمة كتابه، بعالميّة الفلسفة وأهميتها، لمواصلة «الكفاح من أجل تنوير التعليم ضدّ روح الانغلاق والتعصب الديني الذي يؤدي إليه»، ويذكّر ديان بأهمية الترجمة العربية للأعمال اليونانية في نقل الفكر الفلسفي إلى قلب العالم الإسلامي.

التفلسف في الإسلام ليس استثناء عن القاعدة

يسعى أستاذ الفلسفة إلى فصل المنطق الفلسفي عن أيّ انتماء إلى دين أو هوية. لذلك؛ فإنّ التفلسف في الإسلام يعني في المقام الأول «السعي في الكون الثقافي الإسلامي إلى مواصلة وتكريس الحوار الصريح، الذي يتمّ فيه خلق الفلسفة بشكل مستمر، وفي كلّ مكان».

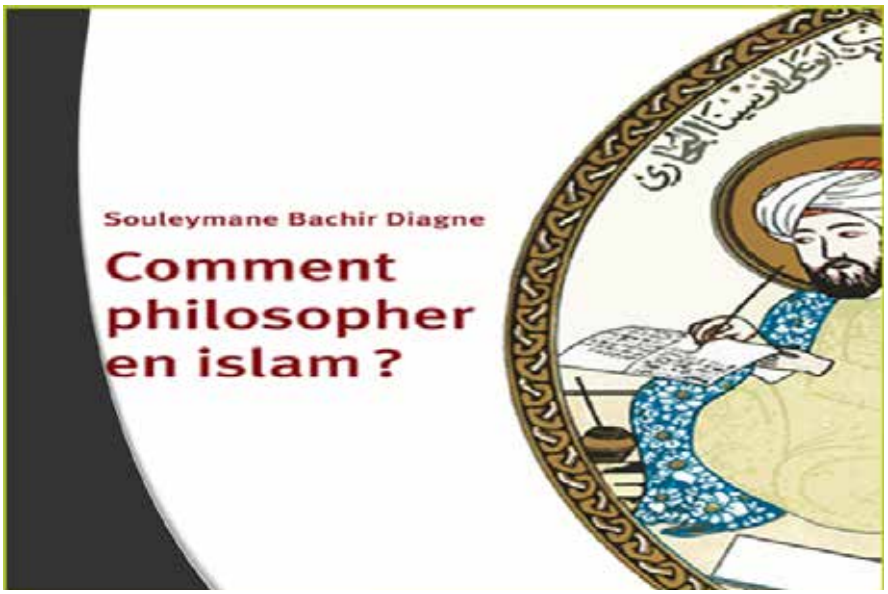

صورة غلاف كيف نفلسف في الإسلام

التفلسف في الإسلام إذاً ليس استثناء عن القاعدة، إنّه أيضاً، بالنسبة إلى المؤلف، استخدام أدوات التفكير نفسها التي تؤسِّس للمسار الفلسفي.

الفكر النقدي يقع في صميم النصوص القرآنية التي تدعو إلى التأمّل: «النص القرآني، في كثير من الأحيان، يشير إلى أنّ بعض مقاطعه غير بيّنة وجليّة بتاتاً، بالنسبة إلى أولئك الذين يريدون الالتزام بمضمونها الحرفي، وبأنّها تحضّ على التفكّر كلّ أولئك الذين يعرفون كيف يُفكّرون»: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (٢١ الحشر)، {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (٤٤النحل(، {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ} (١٣ آل عمران).

وكيف لا نُفلسِف؟

بعد وفاة النبي محمد، صلّى الله عليه وسلم، عام ٦٣٢ في المدينة المنورة، نشأت مسائل فلسفية، خاصة حول خِلافته: من الذي ينبغي أن يقود الأمة الإسلامية؟ أي بعبارة أخرى: «ماذا يعني قيادة الأمة بصفة خليفة للنبي؟ أي نيابة عن مشرّع كان يتحدث باسم الله»، هذا التأمل السياسي الجديد هو الذي يسائل دورَ التفكير الفلسفي في النص القرآني، ففي رأي المؤلف، التأمل الفلسفي قد أتى وولد في وقتٍ مبكّر جداً في الثقافة الإسلامية.

«التفلسف في الإسلام هو، قبل كلّ شيء، التفكير من أجل الحركة والانفتاح، والعمل من أجل التفكير التعددي»

رُؤيا الخليفة المأمون

في هذا الجزء، يحلّل الفيلسوف الالتقاء بين الفلسفة اليونانية والعالم الإسلامي، هذا اللقاء ترمزُ إليه قصة الحلم المستوحى من قبل الخليفة المأمون (٧٨٦-٨٣٣)، هذا الأخيرُ رأى في المنام الفيلسوف أرسطو الذي كشف له أنّ «الحقيقة يجب أن تَظهر للعقل قبل أن يثبتها الوحي»، هذه الرؤية التي رآها الخليفة المأمون، كان هدفها، وفق جان جوليفيه (Jean Jolivet) (أخصائي في فلسفة القرون الوسطى) «أن تحلَّ في الوقت نفسه مسألة التوتر القائم بين رغبة العالم الفكري الإسلامي في الانفتاح على الفكر اليوناني، وبين تردّده في الذهاب نحو حكمة غير حكمة الوحي القرآني المكتملة والكافية بالضرورة».

مساهمة المسيحيين واليهود في ترجمة الفلسفة اليونانية

بعد هذا الحلم الملهم، اتّخذ المأمون قرار إنشاء مؤسسة مخصصة للعلوم الفلسفية. أصبحت philosophia)) المعروفة باسمها اليوناني، تحمل اسم «الفلسفة» في ترجمتها العربية.

هذا الإلهام الذي تلقاه الخليفة المأمون أعطى دفعة حقيقية هائلة لترجمة النصوص الفلسفية اليونانية إلى العربية، وحركة الترجمة هذه لم تكن حركة عادية؛ لأنّها هي التي أتاحت ظهور تخصص فكري قائم بذاته، واستملاكه التدريجي من قبل العالم الإسلامي. ويذكّر المؤلف أيضاً بمساهمة الفلاسفة المسيحيين واليهود في الترجمة المبكرة للنصوص الفلسفية؛ بحيث «كانت الفلسفة في بلاد الإسلام تاريخاً إسلامياً، وتاريخاً مسيحياً وتاريخاً يهوديا أيضاً».

يرى ديان أنّ الفكر الإسلامي يواجه، في الواقع ، اختبار الزمن المتغير

ظهور مفاهيم جديدة وصراعات

وقد كان من عواقب حركة الترجمة هذه التي أحياها مشروع المأمون؛ ظهور مفاهيم جديدة في الفكر الإسلامي، كإشكالية الإبداع الفلسفي، وعلاوة على ذلك، واستجابة لهذا التخصص الجديد، ظهرت مصطلحات جديدة في اللغة العربية.

كما أدّى تطور اللغة العربية إلى نشوب صراعات بين ممثلي الفلاسفة الهلنستانيين (اليونانيين)، وبين ممثلي النحويّين العرب، الذين كانوا يعدّون أنفسهم حماة لسلامة اللغة العربية، وقد استند الشجار، في المقام الأول، إلى قبول، أو عدم قبول، هذا «التهجين الذي ألحقته الترجمات بلغة عدّت الوحي القرآني الذي تلقته يصفها بأنّها نقية، ويجب أن تبقى كذلك».

ما معنى الإسلامي في رأي الفلسفة؟

هل يمكن أن نتحدّث عن فلسفة إسلامية؟ بالنسبة إلى المؤلف، هناك بلا أدنى شكّ، شكل من أشكال إسلامية الفلسفة التي تترجم بـ «استملاك الفكر الإغريقي الذي لم يتم ترجمته وحسب، بل تم إدماجه حقاً».

وأبعد من ذلك، هناك معنى حقيقي للحديث عن «فلسفة إسلامية»، عندما يتم تفسير العديد من النصوص التأسيسية للدين، من خلال منظور المنطق

الفلسفي لفلاسفة كثر، أمثال: أفلاطون، وأرسطو أو بلوتينيوس. إنّه، على سبيل المثال، المعنى العميق الذي تكتسيه إعادة البناء الفلسفي، الذي قام بها الفيلسوف المسلم ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧)، عندما ربط معراج النبي محمد صعوداً إلى لقاء الله: «إعادة البناء هذه تنطوي على الدرس الذي يدعونا لاستخلاص وقراءة المعاني العقلانية التي يرمز إليها» فبالنسبة لديان «النتيجة هي أن نستخلص من هذا السرد هذا الدرس الذي يفيد بأنّ الصعودَ هو أيضاً الرحلة عبر الملكات والمواهب البشرية، نحو تحقيق الطبيعة البشرية».

أبو حامد الغزالي يعارض الفلسفة

في هذا الجزء، يقدّم المؤلف عدداً من الفلاسفة الذين عارضوا بدرجات متفاوتة دمجَ الفكر الفلسفي في المنطق الإسلامي، وكانت هذه المعارضة، على وجه الخصوص، مهمّة اللاهوت الأشعري الذي نهض ضدّ أولئك الذين أحلّوا العقل محلّ منطق الدين الحرفي.

«في رأي أبي حامد الغزالي الفلاسفة عديمو الفائدة متقلبون وهم خطرٌ على الحقيقة نفسها»

أحدُ الأبطال الرئيسيين في هذه الحركة؛ هو اللاهوتي الأشعري أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١)، لقد كتب على وجه الخصوص: «تهافت الفلاسفة»، و«مقاصد الفلاسفة»؛ «ففي رأي أبي حامد الغزالي أنّ الفلاسفة «عديمو الفائدة والمتقلبون» «هم أيضاً «خطرٌ على الحقيقة نفسها»، وأنّهم يجرّون في بعض الأحيان إلى الأخطاء والبدع، ويُحلّل سليمان بشير ديان في هذا العمل تهافت وعدم تماسك أبي حامد الغزالي، وهو شخص عميق التصوّف وقف ضدّ الفلسفة وفلاسفتها، وهو عدم التناسق الذي تناوله على الخصوص الفيلسوف المسلم ابن رشد، في كتابه «تهافت التهافت»، الذي يعرض فيه الغموض واللبس في فكر اللاهوتي الغزالي.

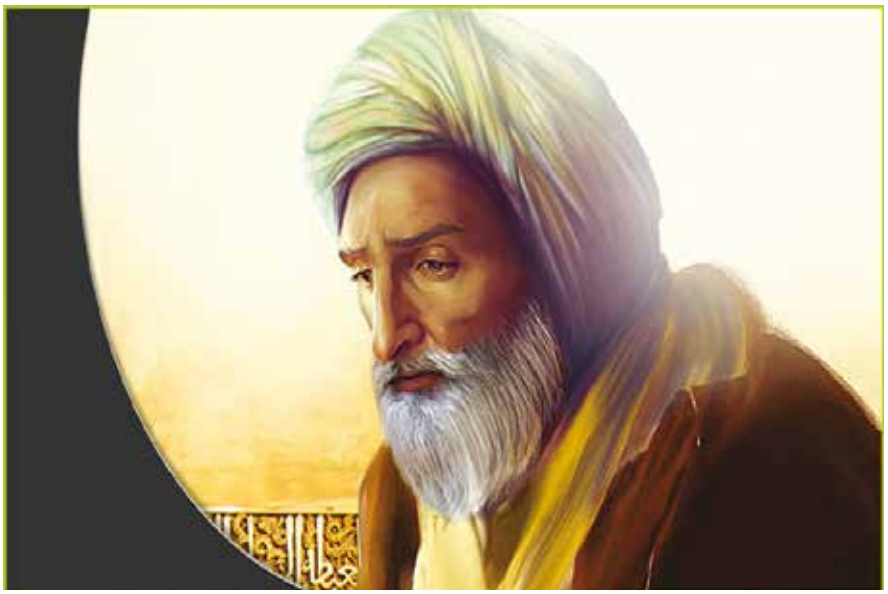

ابن رشد في كتابه تهافت التهافت يعرض الغموض واللبس في فكر اللاهوتي الغزالي

فلسفة اختبار حركة الزمن

بالنسبة إلى المؤلف، الفكرُ الإسلامي يواجه، في الواقع، اختبارَ الزمن المتغير، ومع ذلك؛ فإنّ استخدام الصيغ الآتية: «تحديث الإسلام»، و«أسلمة الحداثة»، هما إجابتان تعارضان سؤالاً طرح طرحاً سيئاً؛ ففي رأيه، مقارنة الحداثة والإسلام مسألة خاطئة. فعلى العكس؛ يرى المؤلف أنّ «الزمن لا يقع خارج الدين؛ بل إنّه قوامه ونسيجه (...) الوقت هو الله»، ولذلك تجب إعادة النظر في مفهوم الزمن، ليس كاختبار، إنما كقوة خلاقة ومستمرة. إنّ «إعادة بناء الفكر الديني للإسلام يفترض تحديث فكر الزمن بصفته مستقبلاً خلاقاً لكون ناشئ ومستمر، وزخماً ناشطاً وحيوياً».

لقاء هنري برغسون ومحمد إقبال والتفكير في الزمن

في هذا الصدد؛ يروي المؤلف محادثةً بين الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١)، والفيلسوف الهندي محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨)؛ فمن هذا اللقاء ولِد التفكير في الوقت، وهو العامل الذي أصبح حاسماً في كتابة أهمّ الأعمال الفلسفية التي أنجزها الفيلسوف الهندي: «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام» (مترجمة عن الإنجليزية عام ١٩٥٥). فبالنسبة إلى الفيلسوفين؛ يفهم الزمن على أنّه تطور إبداعي، ففكرُ إقبال هو الحركة بالتحديد، إنها موجّهة ضدّ كلّ أشكال التشنّج.

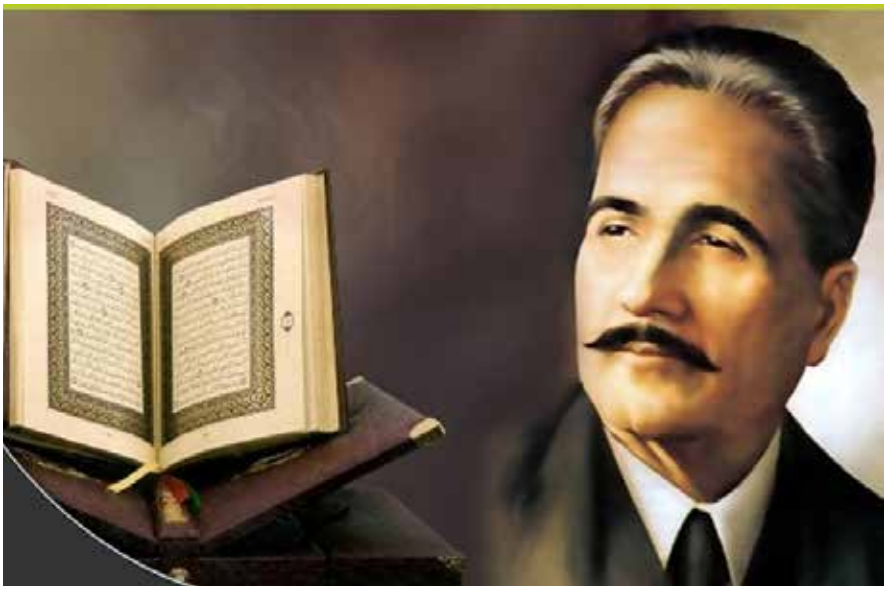

الفيلسوف الهندي محمد إقبال

وبالنسبة إلى سليمان ديان؛ الكلمة الرئيسة لوصف فلسفة إقبال: هي «عدم الاكتمال»، «عدم اكتمالِ العالم؛ أي إنّ العالم في حالة تطوّر مستمر، وعدم اكتمال الإنسان؛ حيث إنّه يعيش بلا انقطاع على مهمة إنجاز شخصه»، ففي عمله على إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام «الإنسان مؤهّلٌ ليكون متعاوناً مع الله في عمل إنجاز العالم اللانهائي».

«التفكير في الوقت هو العامل الذي أصبح حاسماً في كتابة أهمّ الأعمال الفلسفية التي أنجزها الفيلسوف الهندي محمد إقبال»

يختتم المؤلف عمله بفكرة الحركة هذه، التفلسف في الإسلام هو، قبل كلّ شيء، التفكير من أجل الحركة والانفتاح، والعمل من أجل التفكير التعددي. ففي زمن محاولات الانطواء على الهُويات، يدعونا هذا الكتاب للتفكير في الهُويات الدينية في عالم منفتح ودائم التغيّر.

المصدر: عن lesclesdumoyenorient

الإسلام في الهند...
أصوله ووضعه المعاصر

مدني قصري
كاتب ومترجم
جزائري

عند تقاطع طرق الأنثروبولوجيا السياسية، وعلم اجتماع الأديان، تُركز أبحاث أمينة محمد عريف (Aminah Mohammad-Arif) (١)، على العلاقة بين الإسلام وأوضاع الأقليات والشتات، في سياق جنوب آسيا، وهي تعمل على المحاور الثلاثة الآتية: الشباب العائدون إلى الإسلام في بنغالور، التعددية الدينية في جنوب آسيا، في إطار (ANR I-SHARE)؛ (المواقع المقدسة المشتركة لشبه القارة الهندية، التفاعلات الدينية والعلاقات مع الآخر)، المهندسون المسلمون في بنغالور في إطار (ANR Engind) (المهندسون والمجتمع في الهند المستعمرة وما بعد الاستعمار).

تتناول الباحثة، في مقالها، التفاعلات بين الإسلام والهندوسية، الديانة السائدة في شبه القارة، وتأثيرها التبادلي في جميع جوانب حياة المجتمعين المسلم والهندوسي، وتُبيّن أنّ الإسلام ظلّ محتفظاً بخصائصه، التي تجعل أتباعه في شبه القارة، أقرب إلى مشاركيهم في الدين، في أماكن أخرى من العالم.

تحتلّ الهند مكانة رئيسة في العالم الإسلامي، أكثر أهمية بكثير ممّا يتصوّره معظم الناس، فمن الناحية الديموغرافية؛ يشكّل الهنود المسلمون، رغم أنّهم

أقليات، مجموع سكان يبلغ عددهم مائة وخمسين مليون نسمة، ممّا يضع الهند في المركز الثالث، خلف أندونيسيا وباكستان، وعلى المستوى التاريخي، يحتلّ الإسلام مكانة قديمة جداً؛ حيث يعود وجوده إلى القرن الأول من الهجرة النبوية، وهو أمرٌ مهمّ منذ أن أسّس المسلمون هيمنتهم من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر، وقد قاموا بتوحيد جُزئَي شبه القارة، التي استعادها واستكملها البريطانيون.

«كانت التفاعلات بين الإسلام والهندوسية ذات تأثير تبادلي على جميع جوانب حياة المجتمعين المسلم والهندوسي»

وكانت التفاعلات بين الإسلام والهندوسية، الديانة السائدة في شبه القارة، ذات تأثير تبادلي على جميع جوانب حياة المجتمَعين، في شمال الهند على وجه الخصوص، وتُمكن قراءة تأثير الإسلام في العديد من التعبيرات الفنية، الهندسة المعمارية والموسيقى والطهي، وكذلك في التصوف والاقتراض اللغوي، أما بالنسبة إلى الإسلام الهندي؛ فهو متأثر بشدة بتقاليد المناطق التي أنشئ فيها: اعتماد نظام الطبقات، واحتفالات طقوس المرور، والزواج على وجه الخصوص، والتدين الشعبي، وعبادة القديسين، لكن، كما تُبيّن لنا أمينة محمد عريف هنا، فقد احتفظ الإسلام بخصائصه التي تجعل مسلمي شبه القارة أقرب إلى مشاركيهم في الدين، في أماكن أخرى من العالم.

التطور التاريخي

يعود وجود المسلمين في شبه القارة الهندية إلى القرن الأول للإسلام، وقد حدث في موجتين متتاليتين؛ الأولى شملت، من جهة، الغزاة العرب الذين غزوا السند من عام ٧١١، ومن جهة أخرى؛ البحارة والتجار العرب، الذين وصلوا إلى المحيط الهندي. الموجة الثانية؛ التي يأتي منها غالبية المسلمين الهنود، تضمّ غزاة من آسيا الوسطى وإيران وأفغانستان، بدأت في القرن الحادي عشر من قبل

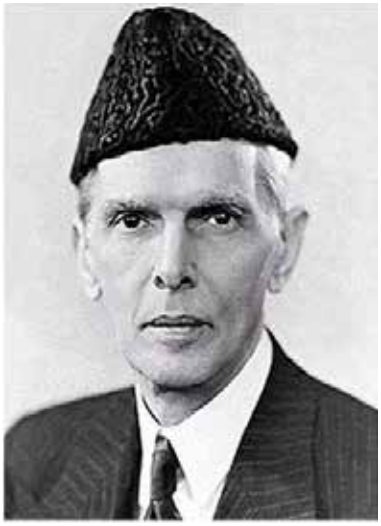

محمد علي جناح

الغزنويين، وقد اتخذت التوغلات الإسلامية منحى منتظماً منذ القرن الثالث عشر، الأتراك والأفغان، ثم المغول، الذين هم مغول أتراك، والذين أنشؤوا هيمنة دائمة على شبه القارة، وقد ساد القادمون المسلمون هناك حتى القرن الثامن عشر، عندما حلّ محلّهم البريطانيون.

شهد الفتح الإسلامي إنشاء إمبراطورية أولى، هي سلطنة دلهي، والتي كانت أصل الثقافة الدينية والسياسة والأدبية، والتي سُمّيت الثقافة الهندية الفارسية، وهي مستوحاة من نماذج القرنين العاشر والثاني عشر، القادمة من إيران وأفغانستان.

انهيار سلطنة دلهي أفاد أحفاد تيمورلنك، من النساء، وجنكيز خان، وهُم المغول، بابور (١٥٢٦-١٥٣٠)، مؤسس السلالة، الذي خلق دولة أصبحت في عهد السلطان أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥) واحدة من أقوى السلالات في العالم.

شهدت الهند المغولية ازدهاراً رائعاً، ظلّ يستقطب التجار الأوروبيين؛ فقد شهدت تطوير حضارة رائعة، ليس فقط في مجالات الهندسة المعمارية، بما في ذلك تاج محل المشهور؛ الذي بناه الإمبراطور شاه جهان (١٦٢٨-١٦٥٨) في ذكرى زوجته المفضلة، ممتاز محل، لكن أيضاً في مجال الأدب والموسيقى والرسم. وفي القرن الثامن عشر؛ أحدثت النزاعات حول الخلافة هشاشة إمبراطورية المغول،

وظهرت دول جديدة في أجزاء كثيرة من الهند، الأوروبيون، بانتهازهم لهذا الانحطاط، دخلوا الصراع من أجل الهيمنة السياسية والتجارية على شبه القارة الهندية، وفاز البريطانيون، وشيدوا في بضعة عقود إمبراطورية واسعة شهدت أوجها في ظلّ الملكة فيكتوريا، في ذلك العصر؛ كانت نسبة المسلمين من مجموع السكان ٢٠٪، وارتفعت إلى ٢٤٪ عام ١٩٤١.

الانفصاليون وشعار «الإسلام في خطر»

بعد الحرب العالمية الأولى؛ تسارعت حركة استقلال الهند، ورافق هذه الحركة استغلال ناجح من قبل الرابطة الإسلامية، بقيادة محمد علي جناح (١٨٧٦-١٩٤٨)، لخوفِ النخب الإسلامية في المناطق الحضرية من أن تجد نفسها معرّضة للهيمنة الهندوسية في الهند المستقلة؛ بسبب الحساب الانتخابي البسيط، وبغرض حشد الجماهير الإسلامية، رفع الزعماء الانفصاليون شعار «الإسلام في خطر»، وجعلوا من الدين الإسلامي المحرك الرئيس للهُوية الإثنية، ونجحوا في ذلك؛ حيث رأت دولة باكستان النور، في ١٤ آب (أغسطس) ١٩٤٧، ومع ذلك، مكث ثلثُ المسلمين في الهند.

ناقلات الأسلمة

عندما وصل المسلمون إلى شبه القارة الهندية، كانت هذه الأرض آهلة بالهندوس بشكل رئيس، يضاف إليهم البوذيون والجاينية (Jainism) (٢)، والمجموعتان منبثقتان عن الهندوسية، والفرس والزرادشتيون، الذين فرّوا من بلاد فارس بعد أسلمته، والمسيحيون (كان المسيحيون هندوساً في السابق)، وبعض اليهود. وعلى عكس أجزاء أخرى من آسيا، خاصّة جنوب شرق آسيا، لعبت التجارة دوراً مهماً في أسلمة سكان شبه القارة، رغم أنّ هؤلاء التجار العرب كانوا من بين المسلمين الأوائل الذين دخلوا الهند، وأساساً في السواحل.

مزايا الإسلام وأثرها على السكان

حصّة الفتح تبدو في المقابل أكثر أهمية وحسماً، إذا كنا لا نستطيع التحدث حقاً عن اعتناق الإسلام قسراً؛ لأنّه كان نادراً جداً، فإنّ وجود فاتحين أتراك،

وأفغان، وإيرانيين، قد لعب، بلا شكّ، دوراً مهمّاً؛ حيث إنّ الحكام المسلمين قد شجّعوا بالفعل هجرة مشاركيهم في الدين، لكنّ المجتمع المسلم في الهند مجتمع متكوّن من مُعتنقي الإسلام الجدد، وليس من أحفاد الفاتحين أو المهاجرين، والمزايا السياسية والاقتصادية التي يمكن أن يقدّمها الإسلام، كانت هي الأصل في تحوّل العديد إلى الإسلام، ولعلّ هذا السبب جعل هذه المزايا تؤثّر بشكل رئيس في الطبقات الوسطى من المجتمع، خاصة مجموعات المحاربين والتجار والفلاحين والحرفيين.

«الوزن السياسي للمسلمين الهنود لا يستهان به، فمساهمتهم الانتخابية تحظى بشعبية كبيرة لدى معظم الأحزاب الهندية»

طبقات المجتمع العليا (البراهمان)، والطبقات الدنيا (المنبوذون)، كانت تتجنب الإسلام بشكل عام، وأخيراً، لعب الصوفيّون المسلمون، دوراً أيضاً في تحوّل السكان المحليّين إلى الإسلام.

على المستوى الإقليمي؛ شهدت مناطق قليلة فقط تحوّل سكانها بشكل كبير إلى الإسلام؛ شمال غرب شبه القارة الهندية (باكستان الحالية)، والبنغال الشرقية (بنجلاديش الحالية)، وكشمير، وبعض جيوب ولاية كيرالا، وفي أماكن أخرى، كان اعتناق الإسلام على نطاق أصغر بكثير.

الإسلام الذي جلبه فاتحو آسيا الوسطى هو الإسلام الحنفي السنّي، الذي ما يزال سائداً اليوم في شبه القارة، وهناك أيضاً بعض الشافعيين، وهو المذهب الذي يضمّ أساساً المسلمين الذين ينحدرون من التجار العرب، خاصّة السكان الذين أسلموا على أيديهم، كما أنّ الشيعة موجودون أيضاً في شبه القارة، ويشكّلون ما بين ١٥ إلى ٢٠٪ من مجموع السكان المسلمين.

وضع الأقلية المسلمة: الوضع السياسي والاقتصادي

الهند، رسمياً، دولة علمانية، وليس بالمفهوم الفرنسي للكلمة، لكن من مبدأ أنّ جميع الأديان في البلاد ينبغي أن تعامَل على قدم المساواة، لكن مع فصلها عن شؤون الدولة؛ هذا هو مفهوم «العلمانية»، بالتالي؛ فإنّ أيّ تمييز ضدّ الأقليات الدينية محظور بشكل رسمي، ومع ذلك؛ فإنّ التعريف الهندي للعلمانية يجعل الهند تعترف بأن القادة الدينيين في المجتمعات المختلفة لهم مكانة متميزة في أيّة مفاوضات مع الدولة، في حالة نشوب نزاع بين الأديان. بعبارة أخرى؛ يتمتع الزعماء الدينيون بشرعية سياسية، وبالتالي؛ فإنّ المواقف التي يتبناها هؤلاء الزعماء غالباً ما تظهر في نظر الدولة كممثلة لمواقف المجتمع بأكمله، ومع ذلك؛ ففي حالة المسلمين، لا ينتمي القادة بالضرورة إلى الجزء الأكثر استنارة من المجتمع المسلم، الذي فقد خلال التقسيم جزءاً كبيراً من نُخبِه، ونتيجة لذلك؛ عندما يدافع القادة المسلمون عن مواقف محافظة، يتأثر بذلك المجتمع المسلم بأكمله.

القوميون يدعون لهندوسية المجتمع

ترك الانقسام ندوباً أخرى؛ حيث إنّ المسلمين الهنود، يُشتبه بشكل خاص، بولائهم إلى الجارة الباكستانية، وبصورة أعمّ، وباعتبارهم مسؤولين عن تقسيم الأراضي الهندية؛ فهم يشكّلون أقلية «مكشوفة» للغاية، وتشهد على ذلك أعمالُ الشغب التي يتعرّضون لها بصفة دورية، لكنّ هذا العنف لا يستمدّ جذوره من التقسيم، لكنّه يندرج أيضاً في سياق المنافسة بين الطبقات المتوسطة الهندوسية والمسلمة، خاصّة في المناطق الحضرية، وقد تمّ استغلال هذه الوضعية بشكل كبير من الناحية السياسية، من قِبل القوميّين الهندوس؛ حيث يدعو الجناح الأكثر تشدّداً منهم إلى «إبادة عرقية ثقافية» للمسلمين، والأقليات الأخرى، بما في ذلك المسيحية، وبشكل أعمّ؛ يدعو إلى هندوسيّة المجتمع، لقد توصّل القوميون الهندوس إلى السلطة في أواخر التسعينيات، فهم من المؤكد أنهم لا يتمتعون بالأغلبية، لأنّهم يحكمون مع ائتلاف مع الأحزاب العلمانية، ولا يبدو، على الأقلّ في المدى القصير، أنّهم يفكّرون في تغيير أحكام العلمانية للدستور، لكنّهم تمكّنوا من ابتذال بعض أشكال الخطاب الدينيّ في المجال السياسي.

غالباً ما يستند الصوفيون في شبه القارة، إلى القديسين

وزن قويّ وتمثيل ضعيف

من المؤكّد أنّ الوزن السياسي للمسلمين الهنود لا يستهان به، فمساهمتهم الانتخابية تحظى بشعبية كبيرة لدى معظم الأحزاب الهندية، لكنّهم لا يتمتعون إلا بتمثيل ضعيف في المؤسسات السياسية.

بالنسبة إلى القضايا الدولية، يمكنهم بالتأكيد، أن يشعروا بالتضامن مع أتباع دينهم في العالم؛ الفلسطينيين، والعراقيين، والشيشانيين، لكن هذا لا يتجاوز، في غالب الأحيان، مرحلة الهُوية العاطفية، فهؤلاء المسلمون الهنود يتجندون قبل كلّ شيء للقضايا الوطنية، وأولويتهم هي انشغالهم بتحسين أوضاعهم في الهند.

المسلمون يقاومون التعليم العلماني

على الصعيد الاقتصادي، ومن النتائج الأخرى للتقسيم؛ يحتلّ المسلمون أسفل السلم الاجتماعي، أمّا النخب فقد هاجروا بكثافة إلى باكستان، فالتخلف الاجتماعي-الاقتصادي لأغلبية المسلمين في الهند مردّه أيضاً لصعوبة في تحديث نظامهم التعليمي، ورفضهم قبول نظام التعليم العلماني بشكل كامل، ويفسَّر هذا الرفض أسباب مختلفة، بما في ذلك شعورهم بمعاناة التمييز، عن حقّ أو عن خطأ؛ فهم لا يرون فائدة في اتباع التعليم العلماني، لقناعتهم بأنّه لا يؤدي بالضرورة إلى وظيفة؛ لأنّ عدة قطاعات من القوى العاملة، بما في ذلك الإدارات

والخدمات العامة بشكل عام، تتبنى في نظرهم سياسة تمييزية تجاه المسلمين؛ لذلك هم يفضلون التوجه إلى وظائف تمنحهم الاستقلالية، ويمكن أن يعتمدوا فيها على أنفسهم، مثل التجارة، بعد أن يكونوا قد تابعوا بضع أعوام من التعليم في مدرسة دينية (الكتاتيب)، ومع ذلك؛ فإن هذه المدارس الدينية، حتى وإن لم تكن بالضرورة بؤراً للأصولية، كما يروّج البعض، فإنها توفر لمعظم روّادها مستوى متوسطاً من التعليم.

الممارسات الدينية والثقافية

تتميز الممارسات الدينية للمسلمين في شبه القارة الهندية باختلافات كبيرة، من منطقة إلى أخرى؛ فالمسلمون، في معظمهم، مشبَعون بتقاليد المناطق التي يسكنونها، وتتأثر هذه التقاليد بدرجات متفاوتة، بحسب العادات الهندوسية، لا سيما في المناطق الريفية، لكن مع ذلك هناك بعض الثوابت؛ حيث يستند مسلمو شبه القارة إلى المبادئ الأساسية للقرآن الكريم والسنّة، وهو يشتركون في أوجه تشابههم في الحياة مع المسلمين المقيمين في أماكن أخرى من العالم.

تأثير البعد الصوفي وإقبال الطوائف عليه

وبخلاف الاختلافات الإقليمية؛ فإنّ أحد المتّجَهات الرئيسة للتعبير عن التدين الشعبي هو، بالتأكيد، الصوفية، الطريق الروحي للإسلام، وغالباً ما يستند الصوفيون في شبه القارة، إلى القديسين، الذين يُفترض أنهّم يملكون قوّة توسطية وتشفعية مع الله، وتدار المعابد والمزارات الروحية، وهي كثيرة في الهند، من قبل أحفاد السيد الروحي، وهي تأوي قبر القديسين، وتشكّل أماكن للحجّ، فيما وراء الانتماء الطائفي، وحتى الديني؛ لأنّ الهنود يتردّدون أيضاً، وبكثرة، على هذه المعابد والمزارات الروحية.

تعدّد لغات المسلمين

على المستوى الثقافي أيضاً؛ يتميّز المسلمون الهنود بتنوّعهم الداخلي، تختلف ممارساتهم اللغوية والطهوية، وطرق ملبسهم، بشكل كبير، من منطقة

وضع المرأة المسلمة في الهند معقّد

إلى أخرى، فعلى سبيل المثال؛ لغة ثقافة مسلمي الهند هي اللغة الأردية، لكن لغالبيتهم لغتهم الأم، وهي واحدة من اللغات المحلية، أو لهجات شبه القارة الهندية، مثل: المالايالام، أو البهوجبرية، أو البنغالية. وبالمثل؛ فإنّ الثوب التقليدي لشمال الهند هو الشيرواني، وهو مجموعة تتكون من سترة طويلة، وبنطلون ضيق للغاية، في حين أنّ مسلمي الجنوب يميلون أكثر إلى لباس الـ «لونجي»؛ وهو نوع من المئزر، لكن قد يكون لمسلم من كيرالا، من الألفة الثقافية مع هندوسيّ من المنطقة نفسها، أكثر مما له مع مسلم كشميري.

وضع المرأة

إنّ وضع المرأة المسلمة في الهند معقّد إلى حدّ ما؛ فهي، من ناحية، تتمتع بجوّ ملائم من الانفتاح، المؤيد للمرأة، ومن ناحية أخرى؛ هي تعاني من كون أنّ القانون الإسلامي الشخصي، الذي بلغ تقنينُه ذروتَه في ظلّ البريطانيين، لم يخضع لأيّ تغيير منذ نهاية الاستعمار؛ منذ استقلال الهند، لم تشهد النساء المسلمات سوى تحسّن طفيف في وضعهنّ، رغم مرور خمسة عقود من التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

الدستور يكفل حقوق المرأة بالتأكيد، لكن في الواقع، لا تتمتع النساء إلا بميزة جزئية من هذه الحقوق، وقد سمحت إصلاحات القوانين الهندوسية

المتعلقة بحقوق الملكية والميراث والزواج، وكذلك بعض التقدم الاقتصادي والاجتماعي، للنساء الهندوسية بالمشاركة نسبياً في المجتمع الهندي، النساء المسلمات، وكذلك المسيحيات في المقابل، لم يتمتعن بالامتيازات نفسها، فما يزال من الصعب للغاية، بالنسبة إلى المرأة المسيحية، الحصول على الطلاق.

وعلى العكس من ذلك؛ فإنّ النساء المسلمات يُفصلن بسهولة من قبل أزواجهن، أو يُجبَرن على العيش في حالة تعدّد الزوجات، لكنّ هذه الممارسة الأخيرة نادرة جداً في الهند، ويمكن تفسير هذا التباين في وضع النساء من مختلف الطوائف الدينية، على وجه الخصوص، بالآثار الضارة للعلمانية في الهند؛ حيث الحرية الدينية تلعب دوراً ذا أولوية مقارنة بالاعتبارات الأخرى، وهكذا؛ فإنّ الأقليات، خاصّة المسلمين، غالباً ما يتمّ استثناؤُها من الإصلاحات الاجتماعية التي تقوم بها الحكومة الهندية، وذلك لأنّ هذه الحكومة، خاصة بعدما وصل حزب المؤتمر إلى السلطة، سعت إلى معاملة الأقليات بشكل مختلف؛ فقد ساهمت الدولة، من خلال خلق مساحة منفصلة للمسلمين، حتى ينظموا أنفسهم كمجموعة سياسية منفصلة، في استبعادهم الفعلي من عمليات التحوّل الاجتماعي، والتنمية الوطنية.

«التعريف الهندي للعلمانية يجعل الهند تعترف بأنّ القادة الدينيين لهم مكانة متميزة في أيّة مفاوضات مع الدولة»

ناهيك عن أنّ الدولة تلجأ، في أيّ تفاوض، إلى قرارات القيادة المسلمة، والحال أنّ هذه القيادة، وهي عموماً، شخصيات محافظة، تعارض الإصلاحات، سيما تلك التي من المحتمل أن تؤثر على القانون الإسلامي الشخصي، لكن من الواضح أنّه إذا كان القانون الشخصي يميل إلى أن يكون أداة بين يدي القيادة الإسلامية للمساومة مع الدولة؛ فهو قانون يسعى إلى تكريس الرمز النهائي للمحافظة على الهُوية الإسلامية في الهند، لدرجة أنّ المسلمين التقدميين يرون

أنّ أيّ إصلاح اجتماعي وقانوني يتعلق بالمسلمين، يجب أن تتمّ بلورته داخل المجتمع نفسه، وأن لا تفرضه الدولة، ونتيجة لذلك، وبسبب المشكلات الطائفية في الهند؛ تُعرَّف النساء المسلمات في المقام الأول على أنهنّ مسلمات، ولسن نساء، ممّا يعرقل حقوقهنّ إلى حدّ كبير.

بين الامتياز السياسي وعوائق القوى المحافظة

في المجموع الهندي؛ يتميّز المسلمون الهنود، الذين يمثلون أكبر أقلية من المسلمين في العالم، بتنوّعهم الداخلي؛ إنهم يتمتّعون بالامتياز السياسي في العيش في بلد ديمقراطي، لكنهم مع ذلك يتعرّضون لبعض المصاعب؛ إذ يرون انعدام الأمن يزداد منذ تولي القوميين الهنود السلطة في البلاد، وعلى المستوى الاجتماعي، وكما يتّضح ذلك من بعض المؤشرات، مثل وضع المرأة ونظام التعليم، فإنّ التراكمات التي نشأت منذ القرن التاسع عشر كثيراً ما تعيق نموّهما بشكل كبير، ومن المؤكد أنّ العناصر التقدمية للمجتمع تمارس الضغط المستمر على الدولة من أجل تطوير الإصلاحات، لكنّ الطريق إلى الأمام محفوف بالمخاطر؛ حيث ما تزال القوى المحافظة تحتلّ مركز الصدارة.

المصدر: clio.fr

مستشرق فرنسي يقرأ أحوال الجهاد في إسلام القرون الوسطى

مدني قصري
كاتب ومترجم
جزائري

«من وجهة نظر تاريخية بحتة؛ لم ينشأ الجهاد كممارسة من لا شيء مع نزول الوحي الإسلامي، بل كانت له سوابق في عادات ما قبل الإسلام.

لقد تشكّلت هذه الممارسة خلال مجرى الوحي الإسلامي، في حياة الرسول، من خلال أساليب أفعاله الهجومية والدفاعية المختلفة، وقد تم رفعها إلى مستوى التزام المجتمع ككل (ولكن ليس التزاماً شخصياً على أيّ فرد مؤمن).

لقد تمّ اللجوء إلى الجهاد في أوقات مختلفة من تاريخ العالم الإسلامي، وفي مختلف البلدان الإسلامية.

إنّ فحص الجهاد من هذه المنظورات المختلفة هو موضوع المؤرخ، لكنّ مؤسسة الجهاد، من وجهة نظر أخرى، تمثّل جزءاً من مجموع موضوعات العقيدة الإسلامية، وعلى هذا النحو، فقد تم تطويرها من قبل الفقهاء وعلماء الدين، في مذاهب لا تأخذ في الاعتبار أيّ نوع من الاعتبارات التاريخية، ولا أيّ نوع من التطور.

لم ينشأ الجهاد كممارسة من لا شيء مع نزول الوحي الإسلامي، بل كانت له سوابق في عادات ما قبل الإسلام

إنّ مهمّة المؤرّخ، هي أخذ هاتين القصّتين في الاعتبار في الوقت نفسه؛ هذا ما تناوله موقع «lesclesdumoyenorien»، من خلال قراءة جديدة لكتاب «الإسلام في عصوره الوسطى»، للمستشرق الفرنسي ألفريد مورابيا (Alfred) Morabia؛ الذي ولد في القاهرة عام ١٩٣١، ومات بشكل مبكّر عام ١٩٨٦، بعد أن أنهى أطروحته الضخمة هذه، وخلَّد اسمه كباحثٍ علمي من الطراز الأول.

كثرت وشاعت أخبار «الجهاد» في السنوات الأخيرة في الغرب، الذي مزقته التهديدات الإرهابية الإسلامية.

الحرب المقدسة

خلف هذه التغطية الإعلامية المفرطة، يبقى الجهاد، الذي يُترجم عادة بـ «الحرب المقدسة»، ظاهرة غير معروفة نسبياً، تمثّل أطروحة ألفريد مورابيا «Alfred Moraba»، التي نوقشت عام ١٩٧١، في جامعة باريس الأولى، مرجعاً في هذا المجال. تستخلص طبعات، ألفريد ميشيل، كتاباً من أبحاثه، عام ١٩٩٣: «الجهاد في إسلام العصور الوسطى» يشرح كيف تطورت عقيدة الجهاد تدريجياً في القرون الأولى للإسلام هذا العمل ثمرة فحص العديد من المصادر باللغة العربية، والتي أصبحت متاحة باللغة الفرنسية.

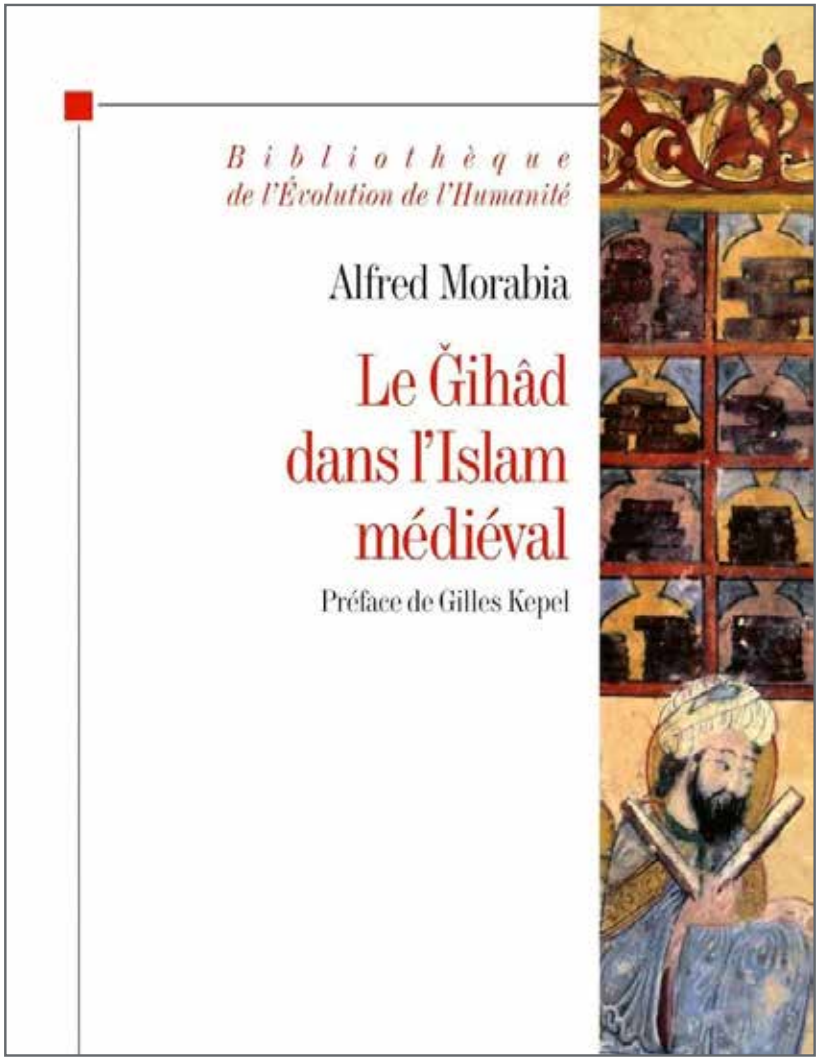

غلاف الكتاب

تشهد إعادة إصدار هذا الكتاب الرائد، عام ٢٠١٣، الذي أعدّ مقدمته عالمُ الإسلام الفرنسي، جيل كيبيل، على الاهتمام المتجدد بمفهومٍ عاد للتألق عبر الأحداث الجارية؛ فالظاهرة المشحونة عاطفياً وفكرياً، باتت تُربك الغرب «ضحية» الجهاد. يعود مرابيا إلى النصوص التي تستند إليها جماعات معينة تُعدّ إرهابية، لإضفاء الشرعية على أفعالها اليوم.

في عام ٢٠٢٠؛ يبدو مفهوم الجهاد ضرورياً لفهم العلاقات بين الغرب والشرق، هذه القراءة تجعل من الممكن تجاوز الأفق الإعلامي لجعل الجهاد مفهوماً، لاستخلاص تكوينه التاريخي والنظري، إضافة إلى ذلك؛ فمن خلال وضع أبحاث مرابيا في سياقها، تتجلى قيمتُها. منذ خمسين عاماً، كانت الدراسات حول الإسلام أكثر ندرة، ولم يجذب الجهاد انتباه الباحثين.

«يفحص المستشرق الفرنسي ألفريد مورابيا الأسس الكتابية للجهاد، ويتوقف طويلاً عند العلاقات مع «أهل الكتاب» المسيحيين واليهود الذين سُمح لهم بالعبادة مقابل أجر»

يمكننا أن نسأل أنفسنا اليوم كيف صار عمل مرابيا رائداً من منظور الجغرافيا السياسية المعاصرة.

نشأة الجهاد

تعدّ ظاهرة الجهاد متعددة الأشكال، موضوع تفسيرات مختلفة، بحسب الزمان والمنطقة، يوضح مرابيا أنّ «مفهوماً مثل الجهاد مُلّوَّناً بمجموعة كاملة من العناصر المتعلقة بالحقائق التاريخية والعلاقات الاجتماعية والسلوكيات الفردية والجماعية، والوضع الدولي، والسياق الجغرافي والتأثيرات الثقافية والعقائدية. يعود المؤلف إلى الجذور التاريخية والاجتماعية والجغرافية والروحية للجهاد، ويرسم «طبيعته الأساسية وأشكاله المختلفة».

يؤكّد مورابيا على الحاجة إلى إعادة صياغة مفهوم الجهاد في سياقه، للتعامل معه من منظور تطوري، فعلى الرغم من أنّ العودة إلى الماضي ضرورية لشرح الحاضر؛ فإنّ اليقظة مطلوبة لتجنب المفارقات التاريخية.

مذهب الجهاد مجمّد منذ قرون تقريباً؛ لذلك لا يمكننا تحليل مفهوم الجهاد في ضوء قيم القرن الحادي والعشرين، تطرح «الحرب المقدسة» مشاكل أخلاقية بديهية على «المجتمع الدولي» الذي يسعى لأن يكون محكوماً بمبادئ إنسانوية.

تعدّ ظاهرة الجهاد متعددة الأشكال

يقدّم مورابيا، أولاً، صورة تاريخية للمفهوم، بدءاً من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، لم يخرج الإسلام من العدم، فقد اعتمد الدين الجديد على خلفية ثقافية سبقته، لا سيما اللغة العربية. وبالمثل؛ الجهاد يجد مصدره في غارات البدو التي سبقت وجود الإسلام، في المجتمعات التي كانت تقدّر المجهود الحربي.

هذه الكفالة الإلهية تعطي الشرعية للعنف: الإسلام «يعطي الجهاد تبريره العقائدي»، بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة، عام ٦٢٢، أكّد الرسول سلطته بالسلاح، وأقام نفسه سياسياً في المنطقة، ثم أصبح الجهاد من إرادة وعمل دولة إسلامية، هكذا أصبح الدين عاملاً ضمن عوامل كثيرة لتفسير ظاهرة الفتوحات.

في عهد الخلفاء الأوائل؛ حقّق الجهاد سيادة الإسلام على الكفار، لكن فيما وراء الشعور بالوحدة، كان المجتمع الإسلامي غير متجانس؛ حيث ظلت خطوط الصدع قائمة داخل الأمة نفسها؛ حيث ظهر جهاد أيديولوجي بين المسلمين.

إذا كانت الإمبراطورية العباسية تمثّل الذروة الإقليمية للخلافة، فقد ظلت السلطة مشتتة، مما أدى إلى تشتت الجهاد على عدة جبهات. وفي مواجهة الصليبيين وُلِدت حماسة الجهاد العسكرية.

يفحص مورابيا الأسس الكتابية للجهاد، ويتوقف طويلاً عند العلاقات مع «أهل الكتاب» المسيحيين واليهود الذين سُمح لهم بالعبادة مقابل أجر. يدعو القرآن إلى محاربة «الكافر»، لكن دون تحديد الكيفية: لا يوجد مبرّر لأهداف

توسّعية للأمة، وتبقى فكرة الجهاد «في سبيل الله» غامضة، والسيرة، وأفعال الرسول، والحديث، أي الكلمات المنسوبة إليه، تُكمل النصوص القرآنية، لتشكل تقليد السيرة، وهذه المصادر، التي تعدّ موثوقيتُها نسبية، تتيح تبريراً لاحقاً للحرب، وهكذا تنزلق الإشارات إلى الجهاد، تدريجياً، من الفكرة الأولية الأصلية وهي «الثبات، والجهد» (معنى الجذر g. h. d.) نحو كفاح مسلح.

«عام ١٩١٥، كان أمل الإمبراطورية العثمانية هو توحيد العالم الإسلامي ضدّ الحلفاء، وكانت هذه هي المرّة الأخيرة التي يعلَن فيها الجهاد رسمياً»

طرائق ممارسة الجهاد

في النصوص الفقهية اللاهوتية، تأتي نظرية وطرائق ممارسة الجهاد، وفي هذه المجموعات (السير) التي تكشف قانون السلام والحرب، ترتسم عقيدة الجهاد. مع توسّع الخلافة نشأت الحاجة إلى التشريع، عندئذ استمد الإسلام إلهامه من قوانين قادمة من مناطق أخرى، لا سيما روما، لقد غرف إلهامه أثناء وبعد الوحي.

القانون القرآني ظاهرة معقدة تشير إلى قرون من التشريع، وفكرة الاقتراض (الاستعارة) هذه، ضرورية لفهم الحضارة الإسلامية بأكملها، ومع ذلك، غالباً ما يكون لشكلية المصادر الكتابية الأسبقية على تنوع مصادر القانون، مما يؤدي إلى تجميد القانون، وفي هذا الجزء، يحلل المؤلف أيضاً وضع «مَحْمِيِّي» الإسلام، فضلاً عن التمييز الذي عانى منه أهل الذمة.

يوضح مرابيا كيف أنّ الجهاد الصغير (المسلح)، وهنا المفارقة؛ سبق الجهاد الأكبر(الباطني). يرى الدين أنّ الإنسان مدعو لمحاربة أخطائه من أجل الاندماج

في مجتمع المؤمنين؛ هذا هو الجهاد الأكبر، الجهاد الداخلي ضدّ الخطيئة، إلى جانب هذا البعد الذي لم يتم تعميمه اليوم، أصبح الجهاد الأصغر هو الذي يُروَّج له في رابعة النهار، الجهاد الأصغر هو الكفاح المسلح ضد أعداء الإسلام، سواء داخل الأمة، أو خارجها، الجهاد الداخلي روحانيةٌ، واستيعابٌ داخلي للجهاد، في قلب الجهاد الداخلي، يميز المؤلف بين الجهاد القسري (أو الدفاعي)، والجهاد الأخلاقي، والجهاد الروحي.

يرى القس الماروني، يواكيم مبارك (١٩٢٤-١٩٩٥)، رائد الحوار الإسلامي المسيحي، في الجهاد، الذي تم تصوُّره في زمن النبي لتركيز السلطة في يديه على حساب القبائل، شكلاً من أشكال تنظيم العلاقات الدولية، عندئذ استقر الإسلام في دولة سياسية؛ وحدها السلطة العليا للإسلام كان يمكنها إعلان الحرب؛ أي أنّ الدولة هي التي تحتكر العنف المشروع، وهو من سمات سيادة الدولة، وفي ذلك الوقت يمكن اعتبار الجهاد شكلاً من أشكال إضفاء الطابع المؤسسي على الحرب، بالتالي؛ فإنّ الجهاد لن يكون عملاً من فِعل جماعات إرهابية، بل عمل دولة شرعية شبيهة بجيش وطني.

أمل الإمبراطورية العثمانية

لقرون من الزمن ظلت الخلافة ترمز إلى وجود الإسلام كعنصر فاعل في النظام الدولي، ومع دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا، عام ١٩١٥، كان أمل الإمبراطورية العثمانية هو توحيد العالم الإسلامي ضدّ الحلفاء، وكانت هذه هي المرّة الأخيرة التي يعلَن فيها الجهاد رسمياً، وأدى تفكك الإمبراطورية العثمانية إلى تكريس اختفاء المرجعية السياسية، وقد انفجرت السلطة المركزية للإسلام مع إنشاء عدة دول، ومع الأصولية الدينية الحديثة، ظلت كلمة الجهاد سارية، لكنّ دلالتها تمّ تضليلها وتحريفها.

في مقدمة عام ٢٠١٣؛ أوضح جيل كيبيل أنّه بعد فترة وجيزة من صدور أطروحة مرابيا، دعا الفلسطيني عبد الله عزام، المقرب من الإخوان المسلمين، إلى تبني هذا المفهوم، لتعبئة المسلمين ضدّ الجيش الأحمر في أفغانستان، وهكذا

مهّد للجهاد المعاصر، فإن تمّر خوض هذه المعركة بمساعدة الأمريكيين، الذين كانوا يسعون لوقف التهديد الشيوعي؛ فإنّ الولايات المتحدة أصبحت الهدف الأول لهذا الجهاد.

يبدو أنّ هذا العنف قد وصل ذروته مع هجوم ٢٠٠١ على برجي نيويورك التوأمين، من قبل القاعدة، بعد مرور عام على إعادة نشر كتاب مرابيا، أعلن أبو بكر البغدادي إنشاء تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، من جامع النوري في الموصل، وفي أحدث تجسيد لهذا المفهوم؛ دعا زعيم التنظيم إلى استمرار الجهاد، في آب (أغسطس) ٢٠١٨، فيما كان ضعيفاً على الأرض، وفي الوقت نفسه، مهدت الهجمات التي ضربت الأراضي الفرنسية، عام ٢٠١٥، الطريق للتغطية مفهوم الجهاد إعلامياً.

يؤكّد مورابيا، عبر صفحات كتابه، على المرونة التي تحايل بها الإسلام على قوانينه الخاصة، حتى تتكيف مع السياق، لقد وُصِفت بعض العادات التي سبقت أسلمة الأقاليم بأنّها كانت إسلامية بالتجربة، فبعد أن قدِّست صُنّفت الأيام الأولى للإسلام بالعصر الذهبي، وما يزال البعض يطمح إلى ذلك العصر، على الرغم من مرور القرون.

استعادة الأندلس:
مقولة مفصلية في خطاب الإرهابيين

محمد الدخاخني
كاتب ومترجم
مصري

عندما ظهرت الخرائط المشؤومة للمرّة الأولى قبل عامين، هَزأ بها سُكّان برشلونة، إذا كانوا قد لاحظوا أصلاً الأخبار الصحفية عن وطنهم، لقد أظهَرَت الخرائط، التي رسمها تنظيم داعش، إسبانيا والبرتغال باللون الأسود، دلالةً على الأراضي التي تسيطر عليها الجماعة الإرهابية الجهادية، كما أُرفقت الخرائط بوعد: «سوف نسترد إسبانيا» بحلول العام ٢٠٢٠، كما قال تنظيم داعش في العراق والشام.

تمحور التهديدُ حول إمبراطورية الأندلس التي قامت قبل فترة طويلة - الخلافة الإسلامية التي استُهِلّت عندما وصل المحاربون المسلمون من شمال أفريقيا، المعروفون باسم المورسكيين، إلى الأراضي الإسبانية في أوائل القرن الثامن الميلادي، وسرعان ما أسقطوا حكم القوط الغربيين، وبسطوا الحكم الإسلامي عبر شبه الجزيرة الإيبيرية، بما تضمّن برشلونة، على ساحل البحر المتوسط بالقرب من فرنسا الحالية.

يعتز المؤرِّخون بالثقافة والفن المغاربيين، لكن بالنسبة للعديد من الإسبان يمثِّل عصر الأندلس أشد الفترات انحداراً في تاريخ بلادهم. ويتجلى تأثير الخلافة في جنوب إسبانيا، أندلُسياً -حيث استمرّت قرابة ثمانية قرون- في اسم المنطقة وفي العمارة الإسلامية المذهلة من قبيل قصر الحمراء في غرناطة، لكن الاحتلال الإسلامي، في القرن الثامن الميلادي، للإقليم الشمالي الشرقي من كاتالونيا استمرّ ٨٠ عاماً، وهو في طيّ النسيان تقريباً مثله مثل خرائط تنظيم داعش المخيفة.

وقد تَرَاءى أنَّ الخرائط (التي وضعها التنظيم) على صلة بالموضوع مرّة أخرى في شهر آب ٢٠١٧، عندما –في الرامبلا، طريق المشاة الواسعة وأحد المواقع الأكثر جذباً للتصوير الفوتوغرافي وزيارة السياح في برشلونة- قامت سيارة بيضاء مؤجّرة بالقفز على الرصيف سَائِرَةً على طول الممشى الذي يتوسّط الشارع، متحركةً ذهاباً وإياباً في جولة مُهلكة أدت إلى فرار جماعي للسياح المرعوبين، بينما قُتِل ١٣ شخصاً وأصيب العشرات في الهجوم، الذي أعلن تنظيم داعش مسؤوليته عنه.

« أظهَرَت خرائط نشرها داعش إسبانيا والبرتغال باللون الأسود دلالةً على الأراضي التي تسيطر عليها الجماعة الإرهابية»

ولم يمض وقت طويل حتى قُتِل خمسة من الإرهابيين المشتبه فيهم على يد الشرطة الإسبانية في كامبريلس، على بعد حوالي ٧٥ ميلاً إلى الجنوب الغربي، بعد أن اقتحموا حشداً من المارّة وأصابوا سبعة آخرين. وقيل إنَّ المهاجمين كانوا يرتدون أحزمة ناسفة، وتعتقد الشرطة أنَّ الخطة الأصلية الخاصَّة بهجوم شارع الرامبلا - ربما - تضمّنت متفجرات أيضاً. وحتّى مع القبض على ثلاثة من الجناة المزعومين –وكان ما زال البحث جارياً عن سائق السيارة المشتبه به، موسى أوكابير (١٨ عاماً)، الذي قيل إنَّ صفحته على فيسبوك قد عبّرت عن رغبته في «قتل الكفّار» -، فإنَّ الحادث العنيف في الرامبلا يُثير تساؤلات مقلقة؛ كيف يمكن

للسُلُطات تأمين مدينة صديقة للمشاة تشتهر بالمهرجانات التي تُقام في ساحاتها الضخمة، كما تشتهر بشارع مثل الرامبلا، الذي تحيط به أكشاك الزهور والمقاهي التي تُقدِّم أباريق السانغريا: مشروب إسباني يتكون من خليط النبيذ الأحمر والبراندي والليمون والبرتقال والتفاح والتوابل، ويُشَرب بارداً، وفي أي لحظة، يتمشى عبره وبين أشجاره الآلاف من السياح، إلى أن تأخذهم الطريق إلى تمثال كولومبوس الشهير الذي يشير بإصبعه إلى البحر؟

« السؤال المخيف للغاية هو ما إذا كان داعش يحاول أن يستفيد من خطره لاستعادة الأراضي التي كانت تُشكِّل الأندلس»

ومع ذلك، فإنَّ السؤال المخيف للغاية، هو ما إذا كان تنظيم داعش يحاول أن يستفيد من خطره لاستعادة الأراضي التي كانت تُشكِّل الأندلس. أياً كان ما يمكن قوله حول القرون الواقعة بين ٧١١ و١٤٩٢، فقد كان الحكم المغاربي بعيداً كل البعد عن الخلافة العنيفة والقمعية التي يديرها تنظيم داعش. فالحضارة الأوروبية شُكِّلت، أكثر مما يدرك معظم الغربيين، عن طريق الأندلس، التي كانت قبل فترة طويلة من صعود العثمانيين في الشرق تمثِّل الحدود الحاسمة بين المسيحية والإسلام. وعندما انطلق المورسكيون شمالاً من برشلونة لاحتلال الأراضي التي يحكمها الفرنجة، جرى صدّهم من فرنسا وفي نهاية المطاف من برشلونة، التي، إلى جانب الإمارات الموجودة على طول الساحل الشمالي الشرقي، شكّلت منطقة عازلة أصبحت فيما بعد إقليم كاتالونيا ذي العقلية الاستقلالية، الذي لا تزال علاقته غير وثيقة ببقية إسبانيا.

ولكن في مدن مثل طليطلة وقرطبة وغرناطة، ازدهرت الحضارة الإسلامية، حيث جرى إدخال الريّ مع محاصيل جديدة مثل البرتقال والليمون، وكان الطب الإسلامي رائداً في جراحة إعتام عدسة العين والبواسير. وأضيئت الطرق

بالغاز؛ والنُسّاخ، الذين ضموا في صفوفهم عناصر نسائية، ترجموا كلاسيكيات روما القديمة واليونان، التي كان من شأنها أن تضيع لو لم يحصل ذلك، ولم يُجبَر المسيحيون واليهود على التحول إلى الإسلام، على الرغم من أن الذين لم يعتنقوا ديانة حكامهم، الإسلام، فرضت عليهم ضرائب هائلة.

غير أنَّ ذلك كان احتلالاً - وعبر عقود، قام محاربون من الشمال، من بينهم السيد (الكمبيادور)، بزعزعة أراضي الخلافة حتّى لم يعد بها إلا القليل من المدن، من بينها غرناطة بقصرها والجبال المحيطة بها. وفي العام ١٤٩٢، انتزعت قوى إيزابيل وفيرديناند أخيراً تلك الجائزة، متوجهة إلى زعيم الخلافة أبي عبد الله (محمد الثاني عشر، آخر ملوك الأندلس)، الذي غادر قصره والدموع في عينيه على فقدان حبيبته الحمراء.

على مدى ٥١٢ عاماً، تَرَاءى طرد المورسكيين على أنه حقيقة ثابتة -حتّى جاء عام ٢٠٠٤، عندما جرى اقتياد أربعة قطارات، في أحد صباحات آذار (مارس)، معبّأة بالركاب، إلى محطة أتوشا في مدريد- وانفجرت القنابل في وقت واحد فيها جميعاً، وقد نسبت الفظائع، التي قتلت ١٩١ مدنياً، إلى إرهابيين إسلامويين ربطوا أنفسهم بتنظيم القاعدة ومجموعة مظالم تعود إلى خمسة قرون خلت.

وعلى مدى العقد القادم، تَرَاءى أنَّ الدعوات إلى إعادة الاستيلاء على الأندلس قد تلاشت، ولكن في العام ٢٠١٤، أقرّ وزير الداخلية الإسباني، خورخي

فرناندیز دیاز، عند تفكيك خلية تابعة لتنظيم داعش، بأنَّ الحلم لا يزال حياً بين الجهاديين، قائلاً للصحفيين: «من الواضح أن إسبانيا تُشكِل جزءاً من التحديات الاستراتيجية للجهاد العالمي»، وأضاف: «لسنا الوحيدين ولكننا في مركز رؤيتهم».

وبعد ذلك بوقت قصير، أفاد معهد غاتستون في نيويورك أنَّ «دعوات إعادة الاستيلاء على الأندلس أصبحت أكثر تواتراً وأكثر شدة»، وأنَّ تنظيم داعش قد شنّ حملةً على مواقع التواصل الاجتماعي، تضمّنت صوراً للآثار الإسبانية المعروفة إلى جانب شعار «تحيا الدولة الإسلامية» وصور للعلم الأسود للتنظيم.

« أفاد معهد غاتستون في نيويورك أنَّ دعوات المتطرفين لإعادة الاستيلاء على الأندلس أصبحت أكثر تواتراً وأكثر شدة»

ومنذ ذلك الحين، اعتقلت قوات الأمن الإسبانية، التي تعتبر الأكثر يقظة في أوروبا، المئات من الإرهابيين والمجنّدين لدى تنظيم داعش المشتبه فيهم. وفي نهاية حزيران (يونيو) ٢٠١٧، أفشلت الشرطة الإسبانية مجزرة كان مخططاً لها في مايوركا، حيث كان الإرهابيون يأملون في السيطرة على الجزيرة التي كانت يوماً ما جوهرة التاج في الأندلس.

بين المراقبة والاعتقالات -أو ربما بسبب زعيم تنظيم داعش البغدادي، الذي كان لقبه ميسي عندما كان يلعب في فريق كرة القدم في مسجده، وولعه الذي تنقله الشائعات بنادي كرة القدم المحلي الذي يلعب فيه ميسي الحقيقي- ظهرت برشلونة محظوظة ومسحورة، ومحصّنة بطريقة أو بأخرى من مصير غيرها من أماكن الجذب السياحي الأوروبية، ولكن كل ذلك تغير، واليقظة تتجدد لإبقاء برشلونة وإسبانيا بعيدتين عن الظهور كأراضٍ محتلّة على خريطة تنظيم داعش.

المصدر: ميليسا روسي- ياهو نيوز بتاريخ ١٨ آب (أغسطس) ٢٠١٧

التعصّب غولٌ يؤمن أنه ابن الدين

مدني قصري
كاتب ومترجم
جزائري

كان التعصبُ عبر العصور محرك اللاتسامح. مصطلح التعصب Fanatism في اللغة اللاتينية كان يشير في الأصل إلى النشوة العميقة التي كانت تميّز كهنة مئات الآلهة الوثنية، الذين كانوا بعد دخولهم في حالة جذبٍ يسُوطُون ويجلدون ويجرحون أنفسهم، ويُشوّهون ويُدمُون أجسادهم، تعبيرًا عن استسلامهم الكلي للآلهة. ونجد أمثلةً على هذا التعذيب المقدس في القصة التوراتية لأنبياء البعل الـ ٤٥٠ على جبل الكرمل. وفي وقتٍ لاحق أصبح التعصبُ مرادفًا لوجدٍ عنيفٍ وعدائي وغير متسامح، دفاعًا عن معتقدٍ ديني، أو سياسي، أو غير ذلك.

بدأ فكُّ التشفيرِ السيكولوجي للتعصّب في نهاية القرن الثامن عشر من خلال كتابات فلاسفة عصر التنوير. وفي القرن التاسع عشر بدأ الأطباءُ المختصون بعلاج المجانين يهتمّون بالآليات المرتبطة بولادة العقلية المتعصّبة. ففي رأي بعض الأطباء النفسيين يُشكل التعصبُ اضطرابًا عقليًا حقيقيًا يشهد على تدهورٍ في الحُكم الرشيد. واعتبَر جوستاف لوبون أن هناك صلةً وثيقة بين التعصّب وسلوك الحشود الخاضعة لتأثيرِ إيحاءاتٍ قويّة المفعول. ومن وجهة النظر هذه صار التعصبُ بالنسبة لِـ لوبون ذا طبيعة دينية. فهو مُتجذّر في المعتقدات التي تقاوم أيّ نقاش مطروح، سواء كانت هذه المعتقدات دينيةً خالصة، مثل معتقدات محاكم التفتيش، أو معتقدات عِلمانية، مثل معتقدات يعاقبة (أو يعقوبيّي) الثورة

الفرنسية. كان أيّ مؤسسٍ لعقيدة دينية، أو زعيم لأي حركة سياسية يستطيعان أن يفرضا على الجماهير الشعبية شعورَ التعصب المقدس. فالإنسان العالق في الصهارة الجماعية يعتقد أنه يجد السعادة في الولع والافتتان والعبادة، وعلى استعدادٍ لأن يضحي بحياته من أجل معبودِه.

استمر التعصبُ الديني في عصر العقلانية الوهمية والحداثة. إذ صارت الحشود الكافرة لا تقل تعصّبًا وتطرفًا عن الجماهير المؤمنة. جوستاف لوبون، في سيكولوجية الجماهير (١٨٩٥) ماثل بين الإلحاد، والحروب الدينية والإرهاب.

« الشخص الذي يعتنق التعصبَ لا يعِي العناصرَ الهيكلية القديمة التي تكشف عن أصولِ سلوكه. فلهذا السبب سيربِط المتعصبُ عملَه بالربّ»

ومن منظور التحليل النفسي، يمكن فك شفرةِ التعصب باعتباره تدميرية مكثفة وعنيفة موجَّهة ضد «فكرة سيئة»، أي ضد تسلل الإيحاءات النجِسة، والشيطانية والشريرة إلى العقل، وهي الإيحاءات التي يدافع المتعصبُ عن نفسه ضدها بالاضطهاد، أي بمحاولة تنقية العالم من خلال العنف. ويندرج التعصب في ثنائية إيروس (إله الحب) وثاناتوس (إله الموت)، بين دافِعية الحياة ودافِعية الموت.

المحلل النفسي الكبير سيغموند فرويد، في كتابه «قلق في الحضارة» (١٩٣٠) يُقدّر أن التعصب يمكن أن يُعبِّر عن العدوانية الموجّهة ضد العالم الخارجي، في حين يُستبقَى الحبُّ للعالم الباطني. ثنائيةُ فرويد الغريزية في الحب والكراهية تجعلنا نكتشف في الولعِ التعصبي مخرجًا للعدوانية التي تسمح الحضارةُ بممارستها تجاه الأجانب.

حول علاقة التعصب بالأمراض النفسية يقول حاييم حربون، وهو دكتور في علم النفس ومدير الأبحاث في جامعة إيكس مرسيليا، إنه ينبغي أن نكون جدّ دقيقِين حول المصطلحات المستخدمة: «يقال بأن التعصب هو أقصى تعبيرٍ عن العنف، والحال أنه يجب أن نميّز جديًا الفروق الدقيقة، لأنه منذ اللحظلة الأولى التي يُعبّر فيها الإنسان عن ذاتِه تصبح مواجهة أو معارضةُ العالم الخارجي تتطلب وجودَ قوة حياتية لا غنى عنها. فاشتقاق كلمة عنف يحمِل في طياته بُعدَين اثنين. الأول عنصرٌ إيجابي، وهو المُكون للشخص، والثاني ديناميكيةٌ كامنة جد خطرة على صاحبِها وعلى الآخرين على السواء».

« الإنسان العالق في الصهارة الجماعية يعتقد أنه يجد السعادة في الولع والافتتان والعبادة، وعلى استعدادٍ لأن يضحي بحياته من أجل معبودِه»

يقول حربون «الإنسانُ عنيف بطبعه، مثل أي كائن حي، لأن العنفَ هو التعبير عن قوة الحياة المتمدّدة المنفتحة. ولكنْ هناك عنفٌ جيّدٌ وآخر سيّئ. والمشكلة هي أنه لا العقلُ ولا الوعيُ يسمحان بالفصل بينهما. إنه العنف نفسُه الذي يبدو للبعضِ وكأنه عملٌ بطولي، فيما هو عملٌ همَجيّ ومدمّر عند البعض الآخر، بحسب المعسكر الذي يقف فيه هذا البعض أو ذاك. عنفُ الآخرين هو الذي يبدو لنا آثِمًا وجانيًا، وعُنفُنا نحن هو الذي نراه مشروعًا، بل ويبدو لنا في كثير من الأحيان واجبًا مقدسًا.

الشخص الذي يعتنق التعصبَ لا يعِي العناصرَ الهيكلية القديمة التي تكشف عن أصولِ سلوكه. فلهذا السبب سيربِط المتعصبُ عملَه بالربّ ضمن رؤيةٍ فلسفية. ويمكن القول إن الأسوأ لا يكمنُ في أن تكون مُخطئًا وإنما يكمن في يقينك بأنك لست مخطئا. لا شيءَ أكثر مرضًا وخَطرًا على التوازن العقلي من الاعتقاد أنك المترجم الأصيل، والمطلق، للإرادة الإلهية. كان هذا مصدر كل التنويريين

(حركة الفكر الفلسفي والتنويري القائمة على فكرة التنوير في القرن الثامن عشر) وجميع المتعصّبين الأكثر وحشية، وكل التبشيريين، وباختصارٍ فهذا هو مصدر التعصب، الأمر الذي يتجسّد في الانقسام الكلي بين مجالَيْ الأخلاق والدين. الضميرُ فكرةٌ فلسفية جوهرية، تثق في الإنسان، وفي حدسِه بالخير والشر. الضميرُ الإنساني يؤسّس المبادئ، ثم استنتاجًا لهذه المبادئ تنشأ المدارس الأخلاقية الاجتهادية المختلفة. وعلى العكس من ذلك فإنّ المتعصب، في سلوكه، لا يُلقي أيّ بالٍ للمبدأ مَهما كان ساميًا، قدْرَ اهتمامِه بالسير وراء ما يمليه عليه عقله الباطني. والحال أنه حتى لا يتعارض سلوكُه مع وعيه سيربِط العنفَ - عن غير وعيٍ - بالإرادة الإلهية.

المصدر: عن موقع leconflit.com

النصوص الدينية لا تقتل.. التأويل الظلامي لها هو المجرم

علي نوار
كاتب ومترجم
مصري

تعرف أي فوبيا أو رهاب اجتماعي، كما يمكن الفهم، بأنها موقف يمس كرامة الأشخاص، لأنها لا تقيمهم على أساس ماهيتهم، بل تصدر أحكاما مسبقة، وتنسب إليهم مسؤولية أمور عدة بسبب تشاركهم في بعض الخواص التي لا علاقة لها بشخصياتهم.

يعد رهاب الإسلام انعكاساً لرهاب المسيحية الذي يمارسه «الإرهابيون الإسلاميون» الذين يرون في «المسيحي الغربي» تجسيدا منطبقاً للشر، وهذا بالطبع غير عقلاني أيضاً. يكون من الصعب بالتأكيد علينا نحن الغربيين فهم التعميم الظالم واتهامنا جميعا بالمسؤولية عن كل الشرور التي يعاني منها المسلمون في أماكن أخرى. البعض لا يعتقد قطعاً أنه من المجحف التعميم واتهام كل المسلمين بالطريقة نفسها بمسؤوليتهم عن العنف الجهادي.

لكن معاداة الأجانب لا تزال حاضرة بقوة بين الناس بسبب «الخوف من الآخر» والمختلف والمجهول، إنه عامل متجذر لدى البشر يمكن تجاوزه فقط بجرعات مكثفة من العقلانية والتعاطف. وليس المشهد العالمي في الوقت الحالي هو الأمثل

لعكس معاداة الأجانب، بل يبدو أنه على العكس، إذ يؤدي، مع الأسف، لزيادتها بشكل مقلق. تتكفل وسائل الإعلام بتعزيزها عبر خطاب الكراهية بأكثر طريقة ممكنة تفتقر للمسؤولية.

على أنّ التأكيد الأخطر يبدو أنه «الإسلام هو المشكلة». حينما يجرى تأكيد ذلك ودون أي تأصيل، يكون هناك تأكيد متخبط لا يعي التعقيد الحقيقي للموضوع. لأنه، ما المغزى من تأكيد ذلك؟ هل الإشارة إلى أنّ الإسلام يحمل في طياته بعض الخصائص التي تجعله غير متوافق مع الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان؟

« يعد رهاب الإسلام انعكاساً لرهاب المسيحية الذي يمارسه «الإرهابيون الإسلاميون» الذين يرون في «المسيحي الغربي» تجسيدا منطبقاً للشر»

إنّ البوسنة وألبانيا دول ذات تركيبة سكانية مسلمة. الوضع ذاته ينطبق على عدد من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، مثل أربيجان وقرغيزستان وطاجيكستان. لكنها دول علمانية. كانت تركيا كذلك لوقت طويل رغم أنها تمر حالياً بمرحلة تراجع تبعث على القلق.

إنّ التشديد على أنّ الإسلام كديانة يحمل بالتبعية بداخله الأصولية، وبالتالي يستحيل وصف أي دولة يعتنق أغلب مواطنيها الإسلام بأنها دولة علمانية، لهو تأكيد تفنده مباشرة الأحداث. لقد أظهر أوليفيه كاريه في مقاله (الإسلام العلماني) أنّ النصوص الكبرى للفلسفة الإسلامية السياسية، بعيداً عن إيجاد خلط بين الديني والسياسي، تعكس التميز.

يزعم البعض أن القرآن كتاب يحرض على العنف. لكن القرآن ليس هو سبب العنف، كما أن الكتاب المقدس ليس كذلك، ولا أي نص مقدس في حد ذاته، بل من يعملون على تأويله، وعلى أساس التأويلات يجدون مبرراً للقتل. النصوص لا تقتل: من يقتلون هم الأشخاص الذين يستخدمونها كذرائع خاوية لبث الرعب. يحوي القرآن نصوصاً تبدو في ظاهرها أنها تبرر استخدام العنف باسم الدين، لكن هذه النصوص موجودة أيضاً في الكتاب المقدس، ولا يستغلها أغلب المسيحيين حالياً لتبرير الحرب المقدسة.

تكمن مشكلة النصوص الدينية- كافة- في غزارة التشبيهات والأساطير واللغة الرمزية، فضلاً عن أنها خارج سياقها التاريخي المحدد تفقد معناها إذا لم يوضع تفسير وسياق منطقي لها. لكن تنشأ صعوبات لا يمكن تلافيها عند البحث عن التفسيرات الأكثر دقة، لأنها تعتمد في كثير من الحالات على «ذاتية» المفسر. ومثل أي نص مقدس آخر، فإنّ القرآن غامض بشكل كاف. الدافع الذي يمهد الطريق أمام المتشددين من كل جانب للعثور على فقرات محددة في الكتب المقدسة تمثل أساساً لا يمكن التشكيك به لترهاتهم وممراً آمناً لجرائم الكراهية التي يرتكبونها.

لكن القرآن هو الكتاب نفسه الذي يقرأه ويتبعه آلاف الأشخاص الذين لا يقتلون ولا يتفقون مع من يفعلوا ذلك. يأخذ المسلمون والمسلمات من القرآن ما يعتقدونه مناسباً، بنفس طريقة تعامل المسيحيين مع الكتاب المقدس، فضلاً عن أن الإسلام دين تعددي ومحدود الكهنوتية تتعايش فيه عدة مدارس تفسير تختلف فيما بينها في جوانب عدة. تؤكد مقولة فارسية قديمة: «يكمن نظام العلماء في اللانظام». لكن لا وجود في المنهج الإسلامي المؤسس ما يبرر أو يحرض على العنف أو الحرب ضد أتباع الديانات الأخرى.

بالتالي لا معنى لأن نبحث في أية ورقة مقدسة أو حاجة جوهرية عن الأسباب المباشرة للعنف الدامي الذي يرتكب باسم الدين الإسلامي. هذا ليس تفسيراً، بل تفسير زائف.

هل يمكننا القول إن المسيحية «بحد ذاتها» دين يحرض على الكراهية، لأن عدد القتلى على أيدي الكنيسة يقدر بالآلاف على مدار التاريخ؟ كان النازيون الذين أبادوا ملايين اليهود بمعسكرات الاعتقال مسيحيين، كذلك باسم الدين، لأن هدفهم كان القضاء على الشعب المسؤول عن مقتل المسيح. لقد وصل الأمر بهتلر أن صرح «أنا على يقين بأنني أعمل كممثل لخالقنا. بمكافحة اليهود فإنني أنفذ إرادة الرب». ننسى أحياناً أنّ أوروبا المسيحية كانت على وشك الاندثار بسبب الحروب الدينية التي ضربت القارة في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

شُنت الحروب الصليبية لنشر المسيحية أيضاً استناداً إلى تصور عسكري صرف. وفي الوقت الراهن، فإنّ فصول العنف بين الهندوس والمسلمين متكررة في الهند. اليهودية في تأويلاتها الأكثر تشدداً ليست أقل عنفاً، ويؤكد ذلك دولة (إسرائيل) القائمة على فكرة عرقية مركزية. حتى البوذيون المسالمون يهمشون ويرتكبون المذابح بحق آخرين، والدليل على ذلك ما تعانيه أقلية الروهينجا التي تعتنق الإسلام في ميانمار.

« يزعم البعض أن القرآن كتاب يحرض على العنف. لكن القرآن ليس هو سبب العنف، كما أن الكتاب المقدس ليس كذلك، ولا أي نص مقدس في حد ذاته»

تجنح وجنحت كل الديانات دائماً حتمياً نحو التطرف. لكن ما يحدد الفارق بينها هو السياق الاجتماعي والثقافي الذي يحدث فيه. تؤكد الأديان باستمرار أنها متوافقة مع الأنظمة الاجتماعية التي تدخل فيها. هي مثل أنظمة حية، تولد وتنمو وتموت، وعلى مدار تطورها تمر بتغيرات عديدة بدءاً من الأصولية وحتى الانفتاح والعكس.

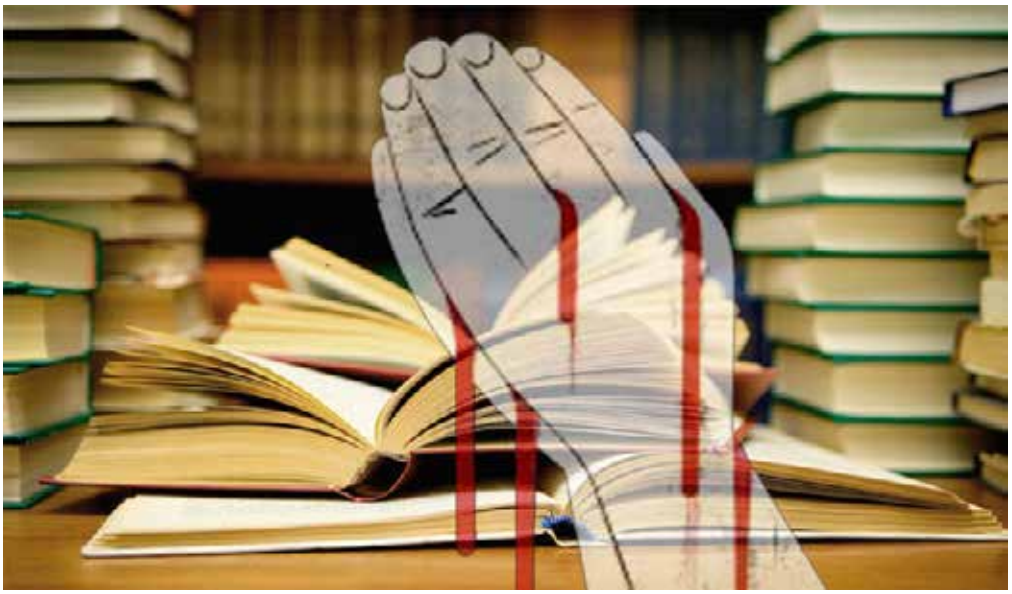

حينما تنزع السطوة السياسية عن دين ما، لا يكون ثمة بديل أمامها سوى تقليص قدراتها العنفية لمحاولة التأقلم على السياق الجديد. هذا بالضبط ما حدث في أوروبا خلال القرن الثامن عشر بظهور التنوير وانتشار الفكر الديمقراطي العالمي القائم على الحرية والمساواة بين جميع المواطنين. تطلّب هذا الفكر فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، ونشأت أخلاقيات مدنية جديدة، وجرى تحرير التعليم من قمع المنهج الديني. وإذا كان أحدهم قد تساءل في القرن السادس عشر على ضوء المشهد الأوربي عما إن كان قادراً على استيعاب الديانة المسيحية بمعايير السلام والاحترام، لاعتبر هذا غير قابل للتصديق. لكن ومنذ اللحظة ذاتها التي نزعت فيها السلطة من الكنيسة وحرمت من امتيازاتها التي دأبت على جمعها، أجبرت على التحول والاستجابة للاحتياجات والمطالب الجديدة من قبل مفهوم المواطنة والعلمنة، حيث لم يعد الدين يلعب دوراً مهيمناً. وكان المجلس الثاني للفاتيكان هو نهاية هذه العملية.

قد يحدث الأمر عينه في الدول الإسلامية وباقي أماكن العالم، حيث توجد ديانات أخرى. يعتمد ذلك على عوامل التطور التاريخي والاجتماعي.

إنّ ظروف الحياة في الدول الإسلامية حالياً قد يكون سببها في جانب منها، الجمود الاجتماعي الذي يجلبه الدين نفسه، لكن الانتشار والفورة التي تشهدها الأصولية الدينية تعزى من جانبها لاعتبارات تاريخية أخرى. فقد شهد القرن

العشرون نشوء حركة قوية داخل الإسلام دفعت باتجاه العلمانية والأفكار التنويرية. فقد لاحق عبد الناصر في مصر، على سبيل المثال، النواة الصلبة للإخوان المسلمين، الذين وصفهم بـ»عقول رجعية» كانوا يريدون العودة لـ»عصور الجهل». دافعت هذه الحركة أيضاً عن حرية المرأة وانتقدت إجبارها على ارتداء الحجاب. كانت القومية العربية أيدولوجية مواتية لتحرير شعوب المغرب العربي والشرق الأوسط واستقت جانباً كبيراً من أفكارها من مبادئ الاشتراكية الهادفة لإحداث تقدم كبير لدولها. لكن هذا السعي من أجل الحرية والتنمية تراجع لأن الولايات المتحدة وأوروبا دأبتا على مكافحته، نظراً لأنها لم تكن تريد دولاً إسلامية متفتحة ومستقلة، بل شعوباً مستضعفة وتابعة كي تستطيع بسهولة مد هيمنتها ما بعد- الاستعمارية.

يفعل القتلة الذين يزرعون القنابل ويطعنون أو يدهسون أشخاصاً بإرادتهم الحرة ودون إجبار من قبل أحد على ذلك. لذا فإنهم مسؤولون بالكامل عن الأفعال التي يرتكبونها. لكن هذا لا يعني أنه بوسعنا تحليل الأسباب السياسية والاقتصادية والثقافية للإرهاب الإسلامي كظاهرة اجتماعية، ونظراً لوجود بعد اجتماعي له فإنه يتميز بطبيعة خاصة مقارنة بأغلب التصرفات الفردية. تتماشى المسؤولية الفردية عن الأفعال مع التفسير السببي للأحداث الاجتماعية.

يقول الفيلسوف المادي ماريو بانجي «تجتذب الجماعات الإرهابية عادة أناساً من أصول مختلفة وهي طريقة للضعفاء لإشباع احتياجات متعددة منها المادي

(موارد طبيعية أو مناصب عمل)، والسياسي (النظام الاجتماعي)، والثقافي (الديني على وجه الخصوص). وبالطبع كل حملة ضد الإرهاب تبوء بالفشل لا تفعل شيئاً للتعامل مع الشكاوى الحقيقية، يكون لها مفعول في أفضل الحالات، على المدى القصير وعلى حساب الحريات المدنية.

وبشكل عام، تتطلب المشكلات المنهجية حلولاً منهجية طويلة المدى، وليس إجراءات قطاعية محدودة الرؤية، ينشأ العنف المجتمعي بالأساس من حواجز نحن/هم. لذا فإن أفضل تناول لهذه المشكلة هو «رفع العوائق».

لم يخرج الإرهابيون الإسلاميون من اللاشيء. يخرجون من أحياء الضواحي حول المدن الكبرى حيث يشجع الفقر والفشل التعليمي على الجريمة وصعوبة اندماج الشباب في المجتمع. أو من المساجد الأصولية الممولة من قبل بعض الدول، التي تنشر الفكر السلفي، أو مراكز التجنيد التي يفتتحها تنظيم (داعش).

ومن أين يأتي (داعش)؟ لقد زودت الإدارة الأمريكية نفسها بالسلاح تلك الميليشيات التي تشكل التنظيم بغرض زعزعة استقرار المنطقة. كان سبب حرب العراق في ٢٠٠٣ هو التدخل الأمريكي بدعم حكومتي بريطانيا وإسبانيا، ما أدى

لانهيار الدولة بالكامل وحولها إلى مكان مليء بالحقد والكراهية، البيئة المثالية لبروز الجماعات المتطرفة التي تنقلب الآن على المصالح الغربية.

يعتمد تطور الإسلام في العالم الراهن على العلاقة بين القوى الحاضرة والمستقبلية. يوجد اليوم قطاع من المسلمين المعتدلين الذين يدافعون عن حقوق الإنسان ويعادون الهمجية. يتبنون الأفكار الأكثر تقدمية في الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، يعانون في أوساطهم الملاحقة وتوابع الرعب ولديهم بالكاد بصيص أمل لتحقيق تغيير في بلدانهم لأنهم لا يحظون حتى بدعم الدول الغربية. هؤلاء المسلمون الذين يرغبون في العيش بسلام وحرية، هم أول ضحايا التطرف الإسلامي حيث ينتشر. لذا فإنهم يفرون من الجحيم في أراضيهم إلى أماكن أكثر أماناً على حيواتهم، ثم يجدون في النهاية عدم التفهم والرفض أيضاً في الدول المضيفة.

لكن سواء أكانت العلاقة بين القوى مواتية أم لا للأوساط المعتدلة المتبنية للتنوير والناقدين لكل دولة إسلامية، سيعتمد الأمر برمته على تحركات دول الغرب، إذا كانوا قادرين على التحرك. ولا تزال هذه العلاقة حتى الآن، وفقا لما نعلمه، لا تصب في صالح هذه القطاعات على الإطلاق. وستظل كذلك طالما أن السياسة الدولية التي تحركها الولايات المتحدة وحلفاؤها هي الخبل الإجرامي كما هي حالياً.

ما الذي يمكن فعله لمعاكسة الآلية الحالية التي تغذي التطرف الديني والإرهاب المصاحب له؟ سأعدّد فقط بعض الأشياء:

*توجيه دعوة لوقف إطلاق النار على جميع جبهات الاقتتال في سوريا، باستثناء تلك التي يجري القتال فيها ضد (داعش).

*قطع مصادر تمويل وتموين الجماعات الإرهابية.

*القضاء على شبكات التجنيد والتأصيل.

*دعم جهود الأوساط الأكثر تقدمية وتنويراً وديمقراطية في دول العالم الإسلامي.

*سحب كل أنواع الدعم لهذه الحكومات التي تغذي وتمول نشر الأصولية الدينية والإرهاب الجهادي.

*حماية اللاجئين.
*الاستضافة الطوعية للمهاجرين القادمين من الدول العربية ودفع أنشطة اللقاء والتفاهم والتبادل بيننا وبينهم، بهدف عزل الإرهابيين كيلا يشعر أي مهاجر بالعزلة أو تلقيه معاملة غير عادلة، ما قد يخلق لديه ميلاً للانضمام إليهم.
*مكافحة الجهل وعدم المساواة سواء في الدول الإسلامية أو الغربية.
*البحث عن حل عادل يمر عبر التفاوض للنزاع الفلسطيني- الإسرائيلي والضغط على الجانبين للتوصل له.
*السعي نحو صور للطاقة البديلة للبترول تسمح بالحد، بشكل فعال، من اعتماد القوى الغربية على دول العالم العربي، بغية إعادة ترسيم العلاقات بين القوى وتقويض نفوذ الأنظمة الأصولية التي تثري الآن من «الذهب الأسود».

هذه ضمن إجراءات يمكننا الشروع في اتخاذها اعتباراً من الآن في إطار استراتيجية فعالة لمكافحة الإرهاب الجهادي على المدى البعيد. لكنها بالطبع إجراءات من شأنها المساس بمصالح مراكز قوى كبرى لا تريد للوضع الراهن أن يتغير.

المصدر: مقال لأندريس أويرجو ريبيليون منشور في صحيفة دياريوكولاتينو الإسبانية

لماذا ينبغي تجريم حرق الكتب المقدسة في الغرب؟

محمد الدخاخني
كاتب ومترجم
مصري

مَن يريد حماية المحرّض اليمينيّ المتطرّف المعادي للإسلام راسموس بالودان؟ مَن يريد منحه الإذن بحرق نُسخ من القرآن علانية، أوّلاً (كما جرى) أمام السّفارة التّركيّة في ستوكهولم بالسّويد، في ٢١ كانون الثّاني (يناير)، ثمّ، الجمعة الماضية، في الدّنمارك، أمام مسجد وكذلك أمام السّفارة التّركيّة في كوبنهاغن؟

لأنّه، لكي نكون واضحين، كان عليه تقديم طلب لارتكاب هذا العمل الشّنيع في السّويد، ولأنّ السّلطات كانت تعرف ما خطّط له في الدّنمارك - وفي كلا البلدين فعل فعلته، بشكل صاعق، تحت حماية الشّرطة.

إنّ سماح السّلطات بهذه الأعمال المروّعة، التي أثارت الغضب في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، لا علاقة له بحرّيّة التّعبير. لم يكن هناك نقاش. لم يُتطرَّق إلى أيّ هدف، بخلاف السّعي إلى الاستفزاز والأذى قدر الإمكان بلا داع.

لا، ما فعله ليس أكثر من تعبير عن ظاهرة منتشرة في جميع أنحاء الدّول الأوروبيّة التي هي في طريقها إلى أن تصبح «ما بعد مسيحيّة» - تسعة في المائة فقط من سكّان السّويد يذهبون إلى الكنيسة مرّة واحدة على الأقلّ شهريّاً، وعشرة في المائة في الدّنمارك. هذه مجتمعات فقدت تماماً مفهوم التّدنيس.

عراقيون يتظاهرون في بغداد

عندما يكون التّديّن في المجتمعات الأوروبيّة الأصلية منخفضاً جداً - غالباً ما يكون الأمر مختلفاً تماماً بين السّكان من المهاجرين - يُروَّج أحياناً لمعادلة خاطئة. هناك مدرسة من المعلّقين تقول: إذا كنّا لن نحاول منعك من حرق الكتاب المقدّس، فلماذا لا تستطيع احترام معاييرنا الثّقافيّة؟ لكن هذه لامبالاة تتنكّر في صورة تسامح. عندما يكون لدى هؤلاء المعلّقين القليل من الارتباط بالإيمان، فإنّ حرق كتاب مقدّس ببساطة لا يعنيهم كما يعني شخصاً متديّناً.

ماذا يقول قاموس كامبريدج ؟

يُعرّف قاموس كامبريدج التّدنيس على أنّه «معاملة شيء مقدّس أو مهمّ من دون احترام»، وهو مفهوم جرت العادة أن يكون مُدرَكاً على نطاق واسع ومحسوساً بعمق في أوروبا. على سبيل المثال، لديّ قريب أكبر منّي كان ينزعج من النّكات الرّوتينيّة حول القساوسة الكاثوليك التي كان يلقيها الممثّل الكوميديّ الأيرلنديّ ديف ألين في برنامجه التّلفزيونيّ في المملكة المتّحدة، في الثّمانينيّات من القرن الماضي، على الرّغم من أنّها كانت في الغالب غير مؤذية. أتذكّر نكتة استعراضيّة يتّكئ فيها كاهن على مقعد، ويتدحرج، ممّا يتسبّب في سقوط جميع المقاعد الأخرى مثل الدّومينو. لكن الأمر كان بسيطاً بالنّسبة إلى قريبي: لا تسخَر من الكنيسة.

قريبي هذا لم يشاهد، ولن يشاهد، فيلم مونتي بايثون «حياة براين»، الذي اعتبره الكثيرون تجديفيّاً عندما ظهر في عام ١٩٧٩، وحُظِرَ في العديد من البلدان.

كان سيفهم المغزى العميق لحرق أيّ كتاب مقدّس. كان سيفهم أنّ حتميّة التّصرّف بلياقة في أيّ كنيسة، أو مسجد، أو كنيس ليست مجرّد مسألة تهذُّب مع الآخرين، وهو ما قد يعتقد فيه كثيرون من ذوي النّوايا الحسنة في أوروبا في الوقت الحاضر. كان قريبي سيعرف أنّ حظر السّلوك غير المحترم قويّ جدّاً لأنّ الموضوع هنا يتعلّق بـ«بيوت الله». أيّ شخص، حتّى لو كان معتدل التّديّن، سيشعر أنّ أدنى انتهاك لهذه المساحات يُخاطر بعواقب وخيمة. لكن إلى أيّ مدى مجتمعات مثل تلك الموجودة في السّويد والدّنمارك تفهم حقّاً أو لديها أيّ وقت لمثل هذه الأفكار الآن؟

« يُعرّف قاموس كامبريدج التّدنيس على أنّه «معاملة شيء مقدّس أو مهمّ من دون احترام»، وهو مفهوم جرت العادة أن يكون مُدرَكاً على نطاق واسع ومحسوساً بعمق في أوروبا»

قد لا يكون حرق الكتب المقدّسة غير قانونيّ في هذين البلدين، لكن ربما يجب أن يكون الوضع كذلك. في ماليزيا، صرّح رئيس الوزراء، أنور إبراهيم، مؤخّراً، أنّ حرق أيّ كتاب أو نصّ دينيّ، بما في ذلك القرآن، أو الكتاب المقدّس، أو النّصوص الهندوسيّة المقدّسة، لن يُتَسامح معه - لسبب وجيه للغاية في بلد به مثل هذه الأديان والأعراق المتنوّعة.

تجريم حرق الكتب الدّينيّة

في عام ٢٠١٠، حظر قاضٍ في المحكمة العليا في جنوب أفريقيا حرق الكتب الدّينيّة. هل لاحظ أحدٌ أيّ تآكل في حرّيّة الكلام أو التّعبير في البلاد بسبب هذا الحكم منذ ذلك الحين؟ بالطّبع لا. في العام التّالي، حكمت محكمة بريطانيّة بالسّجن على رجل حرق القرآن علانية، وجرّم «قانون الكراهية العنصريّة والدّينيّة»

مدرسون وتلاميذ فلسطينيون من مدرسة الجليل يتظاهرون في مدينة غزة

لعام ٢٠٠٦ «إثارة الكراهية على أسّس عرقيّة أو دينيّة». إذا كانت هناك أيّ قيود على حرّيّة التّعبير في بريطانيا منذ ذلك الحين، فإنّ ذلك يعود إلى نشطاء الإنترنت الذين يجنحون أكواماً إلى إدانة الآخرين والسّعي إلى كتم أصواتهم، وليس إلى القانون المذكور للتّوّ.

الحرّيّة الممنوحة إلى راسموس بالودان هي حرّيّة لا تتمتّع بفضيلة أو غرض - بخلاف إثارة الكراهية والتّسبّب في أقصى قدر من الإساءة المجانيّة - فإنّها حرّيّة لا قيمة لها، ويجب على السّويد والدّنمارك تمرير قوانين للحدّ منها.

مثل هذه القوانين لن تُعيق استمرار الأوروبيّين في تقاليدهم الخاصّة في حرّيّة التّعبير. وتجدر الإشارة إلى أنّ قانون بريطانيا لعام ٢٠٠٦ ينصّ على وجه التّحديد على أنّه «لا يجوز قراءة أيّ شيء أو تفعيله بطريقة تحظر أو تقيّد

« الحرّيّة الممنوحة إلى اليميني المتطرف راسموس بالودان هي حرّيّة لا تتمتّع بفضيلة أو غرض - بخلاف إثارة الكراهية والتّسبّب في أقصى قدر من الإساءة المجانيّة»

المناقشة أو النّقد أو التّعبير عن الكراهية أو البغض أو السّخرية أو الإهانة أو الإساءة إلى أديان معيّنة أو إلى معتقدات أو ممارسات أتباعها». بعبارة أخرى، لن يكون لدى المجلّة الفرنسيّة السّفيهة «شارلي إبدو» ما تخشاه من تشريع مماثل.

هناك أشياء ببساطة ليس عليك أن تفعلها، ولا ينبغي السّماح لك بفعلها - وهو شيء يعرفه اليسار غير الليبراليّ الجديد في أوروبا جيّداً، حتّى لو غفل أتباعه عن مفهوم التّدنيس. وحقّاً، هل يريد أيّ شخص أن يحاجج بأنّ حجر الزّاوية في حرّيّته هو القدرة على حرق الكتب المقدّسة؟ من المؤكّد أنّ مفهوم الحرّيّة يمثّل شيئاً أكثر نبلاً من ذلك.

مصدر الترجمة عن الإنجليزية: شولتو بيرنز، ذي ناشونال، ١ شباط (فبراير) ٢٠٢٣